دكتور عبد الرشيد عبد العزيز سالم

شعر الرثاء العربي

واستنهاض العزائم

الناشر

وكالة المطبوعات   عبد الله حرمي

الكويت

الطبعة الأولى
١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة

كلما تعمق الانسان أبعاد الحياة، دعاه ذلك الى إعادة النظر في مفهوم الموت وما يترتب عليه من آلام وأحزان وصراعات تقترب أو تبتعد من دائرة الزمن، ذلك الزمن الذي يخط رسومه ويبني هياكله الانسان وهو في الحقيقة لادخل له في أساسات بنائه، كما أنه لايملك ردّ تداعيه أو تساقطه، وبمقدار ما يعي ويدرك من ذلك تكون مواجهته لحقيقة الموت والتغير الدائمية في هذا الوجود.

لذلك فقد كانت مأساة البشرية بالموت في عصورها الانسانية السحيقة عميقة الغور بعيدة التأثير في مسارات الحياة نفسها. فالعناية بالقبور والاهتمام بيوم الرحيل، أديا الى سيطرة الكهان، والتباطؤ في القفز بالحياة الدنيا الى غاياتها المرجوة.

وجاءت الأديان السماوية لتجعل الموت مقدمة لحياة أرحب وأوسع وأبقى من هذه الحياة المحدودة بزمن، وتحفز أهلها الى السيطرة على أطياف الحزن التي تحيق بهم عند مواجهة الموت. لأنهم موعودون بما هو أرقى وأفضل مما هم فيه على ربوع هذه الأرض، ودعتهم الى الارتقاء والتقدم والأخذ بأسباب الحياة النافعة، لأن ذلك مدار التصنيف والموازنة بين البشر في حياتهم الثانية.

وهكذا انطلقت الحياة من أغلال كثيرة كانت تعيق الانسان الأول وتحد من قدراته، بل وتدفعه في أحايين كثيرة الى الخوف والوهم من يومه وغده.

وكان الشعراء عبر كل عصر وفي كل زمن هم أقدر الناس على تصوير الموت والفجيعة به. وتلونت أشعارهم فيه بألوان تتناسب مع الأزمان والمواقف، حتى لتكاد هذه الأشعار بعمقها واتساعها تكون سجلاً للأمم ولحقبها المختلفة ولرجالاتها وأهم مواقفهم وأعمالهم وصفاتهم.

والأمة العربية أكثر أمم الأرض ميلا للشعر واحتفالا به. وبالشعر تخاطبوا وتعارفوا وسجلوا معظم العلوم والفنون، وصوروا آلامهم وآمالهم، ونسجوا خيالاتهم وأحلامهم. وكان لهم مع الموت أبعاد ورؤى اختلفت وتعددت قبل الاسلام وبعده. فقالوا فيه ما يبكي ونظموا حوله ما يشفي ويريح النفس والفؤاد. وجعلوه في بعض الأحيان غاية تتطهر به الروح وترتقي.

لذلك فإن شعر الرثاء العربي جاء متنوعاً بتنوع هذه المفاهيم فمنه ما نسج ليستزرف الدمع ويثير الوجدان ويحرك الأفئدة رثاء وبكاء على الراحلين. ومنه ما قصد به الشاعر إبراز محاسن الميت وتسجيل أمجاده وأعماله إبقاء لذكراه وتخليدا لها وحثا على الاقتداء بها والسير على نهجها. وعرف ذلك بالتأبين. ومنه ما ينطلق به الشاعر الى ما وراء الموت مستلهماً حقيقة الحياة الخالدة ومصوراً أبعاد هذه الحياة الدنيا وموقف الانسان منها، وما يمكن أن يكون له أو عليه. وهو بذلك يعزي نفسه أو غيره ممن وقعت بهم مصيبة الموت أو دارت عليهم دورته.

وقد حاولت أن أقتطف بعضاً من هذه البحور الزاخرة بهذا الفن من الرثاء. وأن أقدمها عبر عصور العربية المختلفة في ثوب من اليسر والسهولة بعيداً عن الاغراق في الشرح والتحليل والموازنة، وإنما بتصوير للحدث وموقف الشاعر منه، وما جادت به قريحته فيه. محاولاً - قدر المستطاع - أن أربط بين الأثر النفسي عند الشاعر وبين ما يهدف اليه من استنهاضه للعزائم والهمم، وقدرته على تحقيق هذا الهدف من خلال النصوص التي تمثل ذلك من بين أشعاره المختلفة. وكان حرصي شديدا على أن تكون النصوص المختارة كثيرة ومتنوعة، مع محاولة عدم الإطالة بعرض مقطوعات مطولة إلا فيما يفرضه الموقف، ويقتضيه ترابط المعاني.

ومن الله أرجو النفع والتوفيق.

المؤلف

دكتور عبد الرشيد عبد العزيز سالم

١٩٨٢/٢/١٠م

الفصل الأول

رثاء الأهل والأوطان

الشعر الصادق هو الذي يعبر عن وجدان صاحبه، ويصور خلجات قلبه تصويراً يجعل السامع أو القارىء له يشعر بأن للكلمة نبضاً يسري منها إلى فؤاده فيملك مشاعره وحواسه، وينقله الى خطرات فكر الشاعر، فيحس بآلامه وآماله، وينطلق معه الى خيالاته وأسراره، فيرى شخوصه تنبض بالحياة، وتتفاعل معه تفاعل الأحياء بالأحياء.

والرثاء أكثر من أي فن من فنون الشعر يصدق عليه هذا القول كل الصدق لأنه يصدر من أغوار النفس الانسانية، ويعبر عن اللوعة والحسرة التي تنتابها عند فقد من أحبّت. ولايملك الشاعر إزاء هذه العاطفة الحارة الحزينة الملتاعة إلا أن يصدح في شعره بأحزانه وآلامه. وغالباً ما يأتي شعر الرثاء مجرداً عن الرغبة والرهبة، لذلك كان أصدق الأغراض الشعرية وأكثرها تعبيراً عن العواطف الصادقة وأقواها تأثيراً في نفوس السامعين.

يقول الرافعي[1] إن الشعر في الرثاء إنما يقال على الوفاء فيقضي الشاعر بقوله حقوقاً سلفت، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله، ويعد الرثاء من الموضوعات البارزة - في شعرنا العربي - التي حظيت بعناية فائقة من الشعراء عبر العصور المختلفة. لأن الموت قديم قدم الانسان على هذه الأرض، وما من شاعر الا وجرفته مواكب الموت بين الأهل والأحباب والأصدقاء، ففجرت فيه ينابيع الشعر وأثرت قريحته بما لاتجود به في غير هذا الموقف، موقف الفناء الذي يخيم على رأس الشاعر ويحس به أكثر من

---

(١) تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعي جـ ٣ ص ١٠٤ ط أولى ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

غيره، لأن الشعر ينبوع يتفجر من الوجدان وإلهامات تمتد الى ما وراء الواقع، لذلك فهو أقوى على تصوير الموت والآهات أكثر من غيره من الفنون الأخرى.

وقد حاول معظم الشعراء في رثائهم ـ مع ما اصطبغ به من الدموع على الراحل ـ أن يجعلوه نداء جـديـداً للأمل والعمل والانطلاق في الحياة، وأخذ المثل والقدوة من عظماء الراحلين والسير على خطاهم.

لهذا كان لكل امة منـذ القدم مراثيها وقصائدها الباكية، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحديث. وهي عندهم متعددة الألوان والغايات تبعا لتعدد المواقف والأحوال والاتجاهات. فمنها ما يرسله الشاعر بكاء وندبا ونواحا على الراحل يستزرف به الدموع ليطفىء لوعة الفراق، ويصور غربة الانسان على الأرض، ويجسم عظم المأساة التي تركها هذا الرحيل المحتوم. وغالباً ما يكون هذا البكاء والندب على الأقارب الذين تخترقهم المنية من أبناء وآباء وأخوة، يبكيهم الشاعر بالدموع الغزار، ويبثهم لوعة قلبه وحرقة فؤاده.

إنه ينظم أشعاره والموت مطل عليه، ناصب شراكه حول نفسه وروحه، لايملك التمرد على هذا المصير، وليس في مقدوره أن ينفك من فم الهاوية الذي يقترب منه ويوشك أن يلتقمه. إن قيثارة شعره تعزف ألحاناً شجية كلها آلام وحسرات، تمثل في صدق الإطار المأسوي للموقف الحزين وتبين روعة الإدراك الشعري لمأسوية الحياة.

إن الندب والعويل في شعر الشعراء ليس وليد حادثة الموت وإنما هو نوع من مواجهة الذات للوجود والتمرد عليه، لأن الوجود مع بقائه واستمراريته فإنه يحمل مفارقات في نظامه تبدو للشاعر أشد ما تكون حدة وأقسى ألما عند موت من ينزلون منه منزلة النفس والأهل، وعند فقد الأوطان وسقوطها مهيضة الجناح في يد الاعداء. لذلك فهو يبكي ملتاعاً، وذاته تتعذب عذاباً مضنياً، لأنه يدرك أنه جزء من هذا الكون، وأنه إنما يتحرك في إطار نظامه الخاص، وظواهره التي تتكشف له لابد وأن تشمله وتمر عليه كما مرت بغيره شاء ذلك أم لم يشأ.

وحين يفيق الشاعر من لوعته وتنطلق ذاته بعيداً عن العذاب والخوف يعود فيقرع أسماع الناس بأمجاد الراحلين ويشيد بمنزلتهم السياسية او العلمية أو الأدبية والأخلاقية والاجتماعية. فهو لايبكي ولاينوح وانما يطلب مواصلة الحياة على النحو او ذاك. وهذا ما نسميه بالتأبين. وهو في نظري بعد آخر صرخة تصدر من ذات الشاعر موجهة الى منطق الوجود، صرخة فيها خلاص الذات من أحزانها وإن بقي التوتر قائماً بين الذات والوجود، هذا التوتر الخلاق الذي يجعل الشعور بالغربة والضياع حافزاً على الأمل وحيوية الذات وقوة نبضها. مما يحول الموقف الى انسجام بين الموت والحياة ليأخذ الانسان بينهما طريقه تحفزه الآمال، وتدفعه الرغبة في الإبداع والخلق.

وهكذا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي ـ يعبر فيه الشاعر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الراحل المرموق من أبنائها ـ ونداء لأن تظل ذكراه محفورة في ذاكرة التاريخ ما بقي الدهر.

وقد مرت الأمة العربية في عصورها المختلفة بأقصى ألوان المحن والمصائب وتوالت عليها النكبات والهموم، وعضت عليها في أوقات كثيرة أنياب الفقر والفاقة، ونهشت عظامها كلاب المستعمرين من كل لون وصنف، وعاشت تتطلع في حسرة الى من يخلصها من هذا العذاب، وترجو من نسائها أن يلدن لها ذلك النجم الهادي والمرشد الدال على الطريق الصحيح.

وكان الشعراء أكثر الناس حساسية وترقباً لهذا المنقذ، ولهذا كانت فجيعتهم واضحة الدلالة على كل راحل من رجالات الأمة تصوروا أن فيه قبسا من هذا المنقذ الهادي، ولهذا ـ أيضا ـ توالى تأبينهم للزعماء سياسيين ودينيين وعلميين واجتماعيين ومفكرين وهم يستهدفون بذلك أن تبقى ذكرياتهم بين أيديهم وفي خيالهم ليأخذ منها النشء عظة وعبرة لينطلق من بعدهم مولودهم الجديد المرتقب.

وقد اتسم الثلث الأول من القرن العشرين بهذه الظاهرة، حتى لنجد في كل عام تقريباً تأبيناً لأحد الزعماء من أمثال مصطفى كامل، ومحمد فريد

وسعد زغلول، وعمر المختار، ورشيد عالي الكيلاني، وغيرهم من المفكرين والمصلحين.

وإذا كان للتأبين هذا الدور وتلك المكانة في الشعر، فإن للعزاء دوراً آخر يقصد فيه الشاعر الارتقاء بالعقل فوق الأحزان بعيداً عن موقف الموت. فهو يريد بالعزاء مواساة نفسه والآخرين. وهذا يدفعه في الغالب الى التفكير في حقيقة الموت والحياة والغوص فيهما مما ينتهي به إلى معان فلسفية وروحية تحوّل العزاء عند بعض الشعراء الى حكم تروى - كما نطالع عند شاعري العربية العظيمين المتنبي وشوقي وغيرهما - أو توسلات وتضرّعات الى الله ترفع، كما نجد عند ابن الفارض والبوصيري وغيرهما من شعراء العربية في مختلف العصور.

نظرة تاريخية:

عرف البشر الموت منذ آدم حتى وقتنا هذا والى أن يأتي أمر الله وقد اقترن الرثاء بالموت منذ فجر التاريخ بصورة أو بأخرى، وعرفت كل الأمم والشعوب بادية ومتحضرة رثاء موتاها والوقوف على ذكراها، والتحسر واللوعة على رجالاتها، وفي الأدب الفرعوني القديم نجد صوراً من ذلك قائمة بذاتها، أو متصلة ببعض القصص الأسطورية التي شاعت وانتشرت عند المصريين القدماء، والتي عرف العالم عن طريقها كثيراً من عادات وتقاليد هذا الشعب العريق. ففي ثنايا أسطورة «إزيس وأوزيريس وأخيه ست» نجد أن إزيس تبكي زوجها أوزيريس بعد أن قتله «ست» طمعاً فيها حتى يفيض النهر من دموعها. وتظل تبكيه والمصريون معها في أعياده من كل عام، ويمتد هذا الرثاء وذاك البكاء الحار عبر الأجيال حتى يصبح عادة عند المصريين نشاهدها الآن في مآتمهم واحتفالاتهم بالموتى والعزاء فيهم، وفي عويل النساء وبكائهن ولطمهن للخدود وغير ذلك مما يتنافى مع التعاليم الاسلامية التي يدينون بها. لأن الاسلام نهى عن ذلك وواسى أهله في فقيدهم بالتروع بالقرآن واليقين بأن هذه رحلة النهاية، وأن في الآخرة نعيماً أبقى وأرقى للمؤمن. ولم يعرف هذا اللون من المغالاة في الحزن على الميت في ربوع الأمة الاسلامية كما عرف

في مصر. وهذا يدل على أن تراث العصور الساحقة تناقل الى المصريين على الرغم من اختلاف العقيدة وتغير الأزمان.

وأقرب الناس شبها بالمصريين في بكاء الموتى والحزن عليهم هم أهل التوراة، وتحمل مراثيهم وأساطيرهم ألواناً كثيرة من الرثاء والبكاء والنواح والندب على الموتى. ومن يقرأ في التوراة نفسها يجد ألواناً مختلفة من ذلك.

وكما نبغ اليونانيون قديما في الفلسفة والطب. نبغوا أيضاً في الشعر وعلوم الأدب، وكان للرثاء حظ وافر في الشعر اليوناني في القديم إذ اشتهر به شعراء أعلام مثل سيمونيدس وسافو. وكانت مراثيهم تشيع بين الناس، ويمتد أثرها عبر أجيال مختلفة. ونقل الرومان عنهم هذا الفن بين ما نقلوه من فنون شعرهم وألوانه المختلفة وظلت آثار هذا الفن تنحدر من عصر الى عصر، حتى ظهر الأدب العربي وأصبح ذا طابع مميز بعد أن كان لوناً من ألوان الأدب الروماني القديم، ولكن فن الرثاء عندهم ظل يحذو حذو الأمثلة اليونانية والرومانية ولم يتغير عنه كثيراً. ففي الشعر الانجليزي مثلاً. نجد أن « تشوسر » الذي يعد أبا لشعر الرثاء عندهم، ينظم قصيدته الطويلة في زوجة « الدوق لانكستر » ويسميها « كتاب الدوقة ».

وما زال الشعراء الانجليز ينظمون مراثي مختلفة حتى يزعم « ملتن » بمرثيته لسيداس Lycidas وفيها يرثي رفيقاً من رفاقه في الجامعة ابتلعه اليم وسماه باسم ريفي هو «لسيداس» ونحا بقصيدته فيه منحى الشعر الريفي عندهم. ومن أروع المراثي الانجليزية « أدونيس » Adonais لشلي، وهي في رثاء الشاعر كيتس الذي مات في ريعان شبابه، وأدونيس في الاساطير الاغريقية شاب جميل وقعت في شباك جماله « فينوس » فاتخذه « شلي » رمزاً لصاحبه و « لتنيسون » مرثية طويلة في صديق له سماه في الذكرى in memoriam وقد نسج فيها أفكاراً رائعة عن الحياة والموت.

ومن المراثي الانجليزية البديعة مرثية « توماس جراي » وقد دعاها « مرثية كتبت في فناء كنيسة ريفية » وهو فيها لايرثي شخصاً بعينه، وانما يرثي الطبقة الكادحة في الريف التي يموت أفرادها دون أن ينالوا حظا من المجد والشهرة.

ولو لاحظنا هذه الألوان المتعددة من الرثاء في الأدب الغربي الحديث لوجدناها مختلفة كل الاختلاف عن ألوان الرثاء في الأدب العربي الحديث وذلك للفارق الكبير بين حياة الأمتين ومعيشة أبنائها، فبينما أبناء العروبة يطحنهم الاستعمار، ويمزق نفوسهم الفقر كانت الأمم الغربية تعيش في رفاهية، أو تخطو نحوها، ويمتد سلطانها الى معظم ربوع الأرض تقريباً،.. ولهذا كان الشعراء العرب يبكون الرجال ويبالغون في الندب عليهم، بينما شعراء الغرب يتحدثون عن الحياة والموت، وقصة صراع الانسان بينهما.

وفي الأدب الفارسي مراث كثيرة، وشعراء الفرس أقرب ما يكونون الى شعراء العرب، وتأتي مراثيهم في آل البيت مفجعة محزنة، لأنهم كانوا من المتشيعين لهم، ولهم فيهم روائع لاتحصى.

ويلتقي الأدب التركي بالأدبين الفارسي والعربي جميعاً في هذا الباب، واشتهر في عصر قريب منا شاعرهم عبد الحق حامد بديوانه «مقبر» وهو يرثي فيه شريكة حياته حين رحلت عنه.

أما الرثاء عند العرب فقد عرف منذ العصر الجاهلي، وفي الشعر العربي ثروة عظيمة من الرثاء عبر عصوره المختلفة من الجاهلية حتى العصر الحديث، وقد اشترك فيه النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم، وفي بعض الحالات يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة، وبيان عجز الانسان وضعفه أمام الموت. والمتصفح لدواوين شعراء العرب على اختلاف عصورهم يجد صوراً راقية من الرثاء، تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم، ومن الوجهة الفنية لابد أن يكون الشعر الجاهلي قد سبقته مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى، لأنه حين وضع وتناقلته الأجيال كان خالياً من هذه التعبيرات، مما يدل على أنه كان قد فارق هذه المراحل الأولى الساذجة وانتقل الى مرحلة فنية راقية، فيها من الوعي بالموت والحياة ما جعل الشاعر يصب مفاهيمه عندهما في قالب فني ابداعي ظل مضرب المثل حتى عصورنا الحديثة.

ويقول الدكتور شوقي ضيف[1] «ولاارتياب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت في مرقده، ولاتصيب روحه الأحياء من ورائه بشر، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن، وما زال حتى انتهى الى الصور الجاهلية من الافصاح عن احساس الناس العميق بالحزن قبل الموتى، ومحاولة احياء ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم، مع التفكير في القدر، وقصور الناس أمامه، وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم، ما نقش على قبور الأقيال والأذواء في اليمن، والمناذرة في الحيرة وعند الغساسنة في الشام، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم، وتمجيداً لأعمالهم، وكأن هذه الصور للتأبين والاشادة بفضائل الميت (وجدت على انها صورة ساذجة. أما الصورة الجاهلية للتأبين فصورة معقدة لابما فيها من طول فحسب، بل بما فيها أيضاً من وسائل فنية كثيرة، اذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثائهم وصيغه وينوعونها تنويعاً واسعاً، كما نجدهم يهتمون بصورهم (البيانية) واستعاراتهم وتشبيهاتهم، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملائمة بين أنغامها، وشعور الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفئدتهم.

وأسهم في هذا الفن الكثير من النساء والرجال، بل ربما كان النساء الحظ الأوفر من القيام عليه، اذ كن هن اللائي يقمن على ندب الميت اياماً، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات، وكن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود أحياناً، وقد يقمن بذلك في مجالس القبيلة، وعلى القبور وفي المواسم العظام كموسم عكاظ.

وطبيعي أن يتفوق النساء على الرجال في ندب الموتى والنواح عليهم، لأن المرأة أدق حسا وأرق شعوراً، وأيضاً لأن حياة الرجال في العصر الجاهلي كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء.

إن ندب الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى في الرثاء الجاهلي، ونجد

---

(١) فنون الأدب العربي «الرثاء» ص ٧،٨

بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأبين الميت وعد فضائله والثناء على خصاله، والاشادة بصفاته، وتكثر هذه الصورة في تأبين الأصدقاء، والأشراف، بل قد نجدها في رثاء الأخوة. وربما كان السبب في ظهورها ثم شيوعها أن كثيراً ممن كانوا يرثونهم كانوا يقتلون في حروبهم الدائرة، فأرادوا أن يبينوا عظم المصيبة والخسارة بفقدهم. وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر على نوائب الدهر وحدثانه، فالدنيا دار فراق لادار خلود وبقاء، وكل نفس فيها ذائقة الموت، فالموت حوض يرده الجميع، وليس امام الناس الا الاستسلام للأقدار وما يأتي به القضاء. ولما انتهت دولة المناذرة في الحيرة رثوها، واستخرجوا منها العبر والعظات على أن كل ما في الدنيا زائل، وأن البكاء لايرد هالكاً هلك، ولا ميتاً مات، فالأقدار بيدها كنانتها وقوسها، ولاتزال ترمي بالسهام الأفراد والجماعات والقبائل والدول.

وقد ظلت الصور الجاهلية تنمو وتتصعد في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة تحت تأثير العقل العربي من جهة، وتبدل حياة العرب، واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية، ولكنها في جملتها ظلت ترتد الى هذه الصور الجاهلية وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصوله، وكما تأخذ القنوات من ينابيعها.

والذي لاشك فيه أن رثاء الأهل في الشعر العربي كثير ونابض بالحياة، ورثاء الأبناء أشد لوعة وألما وحرقة.

ومع كثرة الرثاء في الشعر العربي للأبناء والأخوة قل ما نجد فيه بكاء لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت، ويرجع ذلك الى أن الشعراء تعودوا تقليداً للجاهليين ـ ألا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وألا يبكوا عليهن.

ومن أجمل ما قيل في رثاء الأمهات قول ابن سناء الملك[1]:

قد رماني الزمان منه بخطب   أفحمت عنه السنّ الخطباء

---

(١) انظر (ابن سناء الملك حياته وشعره) ص ٤٩١ ـ ٤٩٥ تحقيق محمد ابراهيم نصر ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة على نفقة وزارة الثقافة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

ودهـاني بمـا أعـبـر فـيـه عن ثيـابي لـه وحـسن عـزائـي
صـار منـه يـرى الغنـاء نـواحـاً مسمعي والـنـواح مثـل الـغنـاء

ثم يقول:

ليت شعري هل تعلمين بأن ابـ ـنك بين الورى قليل الرواء
ذو نحيب قـاض وحـزن غـريم وسقـام عـدل وبشـر مـرائـي
وفـؤاد مـا بـين هـاء وميـم لم يكـفـا عـنـه بميـم وهـاء
شـغـلـت قـلبـه هـموم عـظام وخـلا سـره مـن الـسـراء

كما أن أجمل ما قيل في رثاء الآباء قول شوقي يندب أباه[1]:

أنـا من مـات، ومن مـات أنـا لـقـي المـوت كـلانـا مـرتـين
نـحـن كـنـا مـهـجـة في بـدن ثم صـرنـا مهجـة في بـدنـين
ثـم عـدنـا مـهـجـة في بـدن ثـم نـلقـى جـثـة في كـفـنـين
ثـم نحـيـا في عـليّ بـعـدنـا وبـه نـبعـث أولى البـعـثـتـين[2]

ثم يقول:

مـا أبي إلا أخ فـارقـتـه وده الصـدق، وود النـاس مـيني
طـالمـا قـمـنـا الى مـائـدة كـانت الكسـرة فيهـا كسـرتـين
وشـربـنـا مـن إنـاء واحـد وغسلنـا بعـد ذا فيـه اليـدين
وتمـشـيـنـا يـدي في يـده مـن رآنـا قـال عنـا: أخـوين

وبكى كثير من الرجال زوجاتهم، وربما كانت الزوجة اهم النساء اللائي ذرف الرجال عليهن من الدموع، وفي كتب الأدب قديماً وحديثاً نجد قطعاً

---

(١) الشوقيات حـ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٦.
(٢) علي (أحد أبناء شوقي)

مبكية في هذا الجانب ولعل أروع من بكى زوجته في العصر الحديث هو « محمود سامي البارودي » اذ ماتت شريكة حياته وهو منفي في « سرنديب » فحرم أولاده أباهم وأمهم جميعاً. واجتمع عليه بذلك شقاء المنفى، وفقدان الزوجة، وضياع الأولاد، فجاء بكاؤه حاراً وموجعاً. وانه ليقول[1]:

يا دهر فيم فجعتني بحليلة　　كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها　　أفلا رحمت من الأسى أولادي
أفردتهن فلم ينمن توجعاً　　قرحى العيون رواجف الأكباد
ألقين در عقودهن وصغن من　　در الدموع قلائد الأجياد
يبكين من وله فراق صفية　　كانت لهن كثيرة الاسعاد
فخدودهن من الدموع ندية　　وقلوبهن من الهموم صوادي

وكما ندب الشعراء أهلهم وذويهم، وبكوا، وأبكوا الناس على الراحلين ـ ندبوا أنفسهم حين أدركوا أن الرحيل قريب، وأن المنية تطرق أبوابهم، وأن مصيرهم إلى حفرة مظلمة يشيعهم إليها الأهل والأحباب، وتأتي أناتهم حائرة شجية حين يذكرون ذنوبهم فيخافون ربهم، ويشفقون من لقائه.

بل انه كان كلما اشتدت آلامهم أخذوا ينادون الموت ويرجونه، مؤمنين بأن هذا هو القدر المحتوم، يقول الشابي[2]

ليت شعري
أي طير

يسمع الأخر يبكي　　بين اعماق القلوب
ثم لايهتف في الفجـ　　ـر برنات النحيب

(1) ديوان البارودي جـ ١ ص ٢٣٨، ٢٣٦ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م.
(2) ديوان أبي القاسم الشابي ص ٨٦ ـ ٨٦ طبع دار العودة بيروت طبعة أولى سنة ١٩٧٢ م.

بخشوع واكتئاب

لست أدري

أيُّ أمر

أخرس العصفور عني أترى مات الشعور
في جميع الكون حتى في حشاشات الطيور

أم بكى خلف السحاب

في الدياجي؟

كم أناجي

مسمع القبر بغصات نحيبي، وشجوني

ثم أصغي علَّني اسمع ترديد أنيني

فأرى صوتي فريد

ويقول أيضاً:

اسكتي يا جراح واسكتي يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطلَّ الصباح من وراء القرون

واذا كان الشعراء في كل أمة وفي كل تاريخ نظموا قصائد الرثاء المحزنة في أولادهم واخوتهم وزوجاتهم وآبائهم وأمهاتهم وندبوهم بدرر المعاني التي خلدت ذكرياتهم عبر العصور، فقد ندبوا دولهم التي سقطت وبكوا مجد أممهم الذي تحول عنهم ووصفوا بعض مدنهم بأوصاف لاتمحى، وصوروا في صدق حدائقها ومرابعها ونواديها، ومنازل أنسها، وكيف أقفرت وأصبحت تبكي على أهلها كما يبكون عليها.

وقد عرفت الأمة العربية الاسلامية في القرنين الأولين للهجرة مجداً لم تعرفه أمة قبلها. فقد كانت أقوى أمة في الأرض في ذلك التاريخ تجمعها وحدة

الدين والفكر والآمال والغايات. حتى غربت دولة بني أمية سنة ١٣٢هـ، وجاءت دولة بني العباس ولم يكن قادتها الأواخر على بصيرة بادارة هذه الأمة المترامية الأطراف، فأخذ الولاة يطمعون فيهم، ويعملون على الاستقلال بأقاليمهم، فنشأت القوميات في الغرب والشرق، وأصبح العالم الاسلامي دولا لاتحصى، وأصبحت كل دولة تعمل ضد الأخرى، أو لاتهتم بما يجري في باقي الأمة التي كانت قبل قليل جزءاً منها، وكان بعض قادة هذه الدويلات من الكفاءة والقوة مما رفع شأنها وأعلى سلطانها، ولكنه ما أن يرحل عنها حتى يأفل نجمها وتغيب شمسها، فيبكيها الشعراء ويندبونها، ثم تأتي دولة أخرى لتأخذ مكانها، ولكنها تشيخ وتهرم، وهي لاتزال في شبابها.

وقد أصبح شيئاً طبيعياً أن تسمع عن دولة أقيمت ثم سقطت. وعن مجد في الشرق قد ازدهر ثم غاب، وعن قوة ومنعة في الغرب بدت ثم انهارت، وبعد أن كان مقر الخلافة كعبة القصاد أصبح موئل المنتفعين والمغرضين وأصحاب الغايات، ولم يعد أحد في أطراف الدولة أو قلبها يسمع للخليفة أو يعي شيئاً عنه، حتى بدأ الخلفاء يجمعون المماليك حولهم ليحتموا بهم من أهلهم وأبناء أمتهم.

وكما ندب الشعراء دولة بني العباس وسلطان الخلافة، وعظمتها في بغداد، وناح المشرق عليها، بكى شعراء المغرب دول ملوك الطوائف بالأندلس تلك الدول التي ظهرت إبان ضعف الخلافة وازدهر علمها وحضارتها في المغرب، ولكنها كانت أشبه بنبت شيطاني ظهر على حواش الحقول وليس في أعماقها، وما أن ازدهر حتى عصفت به الرياح عند أول نوء.

فقد كانت الأندلس درة الأمة العربية والاسلامية في عهد بني أمية، حتى غربت دولتهم، ودب الضعف في دولة بني العباس، وظهرت الدويلات في المشرق، وسرى مرضها وانهيارها الى المغرب فتحولت الأندلس الموحدة القوية الى دويلات يسهل على الطامعين القضاء عليها والتهامها، وأخذت الأطماع تنهش قلوب رؤساء هذه الدول فكل يريد أن يستولي على ما حوله، فما إن تزدهر دولة منها حتى نجدها قد أصبحت خبراً من الأخبار.

وقد استطاع « يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين أن يلتهم دول ملوك الطوائف قبل ان تسقط دولة الأندلس كلها في أيدي الإسبان. وكان الشعراء يعيشون هذه الأحداث بقلوب محزونة ونفوس مكلومة، ولا يملكون الا ندبها وبكاءها والتحسر على عزها ومجدها.

وكان لبعض المدن في نفوس الشعراء منزلة تقارب الأهل والولد لذلك حين سقطت دولتها وتحول المجد عنها بكاها الشعراء كما يبكون أبناءهم، وناحوا عليها كما ينوحون على أعز عزيز لديهم، وقد كثر ذلك في الأندلس، حيث كانت تتساقط الدويلات، والمدن في أيدي الإسبان تساقط أوراق الخريف، والمسلمون يرون ذلك رأي العين ولكنهم في غفلة ساهون، ديارهم مهددة بالغزو والدمار، وهم متفرقون تنهشهم أمراض العصبية القبلية، وعبادة الأقليمية، ونسيان الدين الواحد والأمل الواحد، وفوق هذا ينابز الأخ أخاه، وتقاتل المدينة أختها، حتى ضاعت الأندلس، وضاع غيرها من بلاد المسلمين، وبحت حناجر الشعراء تحذيراً وإنذاراً. ولكن الأهواء أعمت الأعين، وأصمت القلوب، فلم تعد تدري بما حولها حتى توالى الضياع تاريخاً بعد تاريخ، ولم يجد الشعراء الا البكاء والنواح والأنين.

ومع طول الزمن لم ينس الشعراء الأندلس الحبيبة، وان كان الحكام والمسؤولون قد نسوها، وعاشوا في أوهامهم وضلالهم حتى أجمعت أوربة أمرها على المسلمين مرة أخرى، ووجهت ضربتها لدولة الخلافة في تركية وضاعت من جديد بلاد كانت للمسلمين، وحل الخراب بمدن كانت محط أنظار العالم وملء سمعيه.

ولقد كانت « أدرنة » من المدن الهامة في دولة الخلافة، واستولى عليها « البلغار » سنة ١٩١٢ م للميلاد، وأحس شوقي بفداحة الكارثة، واستعاد ذكريات الأندلس الغالية، فأنشأ قصيدة مملوءة بالنواح والعبرات على هذه المدينة سماها «الأندلس الجديدة» إشارة إلى أن الكارثة فيها تجديد لكارثة المسلمين في الأندلس العربية، ولينبش الجرح القديم الذي لم يلتئم مع طول الزمان الذي مضى عليه، وليبين آثار تلك الجروح في جسد

الأمة، وأن تصور البعض أنها بعيدة عن لحمه وعظامه، وفيها يقول[1]:

يا أُخت أندلس عليك سلام — هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء، فليتها — طويت، وعمّ العالمين ظلام
مقدونيا ـ والمسلمون عشيرة — كيف الخؤولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا، وكان بعزهم — وعلوهم يتخايل الاسلام
البغي في دين الجميع دنّيه — والسلم عهد والقتال زمام
واليوم يهتف بالصليب عصائب — هم للاله وروحه ظلام
خلطوا صليبك والخناجر والمُدى — كل أداة للأذى وحمام
أو ما تراهم ذبحوا جيرانهم — بين البيوت كأنهم أغنام؟
كم مرضع في حجر نعمته عدا — وله على حد السيوف نظام
وصبية هتكت خميلة ظهرها — وتناثرت عن نورها الأكمام
وأخى ثمانين استبيح وقاره — لم يغن عنه الضعف والأعوام
صبرا «أدرنة» كل ملك زائل — يوماً، ويبقى المالك العلام
خفت الأذان، فما عليك موحد — يسعى، ولا الجمع الحسان تقام
وخبت مساجد كنّ نوراًجامعاً — تمشي اليه الأسد والآرام
يدرجن في حرم الصلاة قواتناً — بيض الأزار كأنهن حمام
في ذمة التاريخ خمسة أشهر — طالت عليك فكل يوم عام
السيف عار، والوباء مسلط — والسيل خوف، والثلوج ركام
بعث العدو بكل شبر مهجة — وكذا يباح الملك حين يرام
ما زال بينك في الحصار وبينه — شم الحصون، ومثلهن عظام
حتى حواك مقابراً، وحويته — جثثاً فلا غبنٌ ولا استذمام

وليس ببعيد ما حدث لفلسطين العربية، منبت الأنبياء، وملتقى مسراهم ومقر القبلة الأولى للمسلمين، ودرة عمرهم الغالية، فقد سقطت في أيدي اليهود والصهيونيين والطغاة، وشرد أبناؤها في ربوع العالم، وتوالت عليهم

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢ ـ ٢٣٩

وعليها المصائب والمحن، وندبها الشعراء وبكوها، ورددوا مأساتها في الآفاق وما زال مأتمها قائماً تنوح فيه النائحات، وتندبها النادبات، ويبكي عليها وعلى بنيها الباكون، والعالم الاسلامي كله يلبس السواد من أجلها، وتعتصره الآلام على مصيبتها، والدنيا في شرقها وغربها تعبث وتلهو بالعرب والمسلمين منذ صدور وعد « بلفور » سنة ١٩١٧م وحتى وقتنا هذا، فلم يشهد العالم لا قديماً ولا حديثاً أمة بغت على أخرى، وسلبتها وطنها وخلدها وفراديسها على النمط الذي حدث من اليهود في فلسطين.

وقد حاول العرب صد هذه الموجة الشريرة عن أرض الأنبياء، ولكن العدو كان غادراً، وقوى العالم من خلفه كانت عابثة فانتصر الباطل على الحق، ودمرت كلمة العدالة في عرف الأمم. وبكى الشعراء الوطن المقدس وناحوا على فلسطين، وبحت أصواتهم وهم ينادون عرب المشارق والمغارب أن يهبوا لنجدة الأرض الغالية المقدسة، وحتى الآن نسمع من الاذاعات « نداء الفداء » لعلي محمود طه حيث يقول[1]:

أخي إن في القدس أختاً لنا أعد لها الذابحون المُدى
أخي قم الى قبلة المشرقين لتحمي الكنيسة والمسجدا
فلسطين يفدى حماك الشباب وجل الفدائي والمفتدى
فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردى

ولم يعرف العرب في عصرهم الحديث بلداً عربياً بكى عليه الشعراء كما بكوا على فلسطين، وما زال بكاؤهم يتردد صداه عبر جبال الجليل ونابلس والناصرة والقدس وحيفا وغيرها من القرى والنجوع، وحدائق البرتقال، وبيارات الزيتون، ونحن نأمل أن ينتهي هذا المأتم الطويل وتعود الأفراح الى فلسطين الشهيدة.

وهذا سميح القاسم الشاعر الفلسطيني الذي عاش محنة وطنه، ورأى

---

(١) ديوان علي محمود طه جـ ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣ طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ دمشق سنة ١٩٦٢ م مع شرح وتعليق للاستاذ سهيل أيوب.

ربوعه الحزينة تساق الى مجازر الصهيونية وتذبح بأيدي القوة الكبرى في العالم، وتأكل عيونه وأضلاعه ذئاب الأرض غرباً وشرقاً. وآهته الثكلى بلا حدود يراها. يقول[1].

غرباء

وبكينا.. يوم غنى الآخرون
ولجأنا للسماء
يوم أزرى بالسماء الآخرون
ولأنا ضعفاء
ولأنا غرباء
نحن نبكي ونصلي
يوم يلهو ويغني الآخرون

فالشاعر يبكي غربته بعيداً عن وطنه السليب. وفي بكائه المر ينطلق الى السماء مترقباً العون والمدد، راجياً أن تكون تلك الغربة محدودة بزمن الضعف، ذلك الضعف الذي يلجيء صاحبه دائماً الى التضرع الى الله ورجاء الخلاص منه وحده، فهو القوة التي لاتنهي. وعيناه في بكائه وتضرعه على الغاصبين الذين يلهون ويعبثون على ثرى وطنه، وفي عتوهم لايتذكرون الاله ولايخافون.

وتكثر جراحه الدامية، يلعقها وحده في صمت. إنها أبداً لاتلتئم، وزمنه معها بلا حدود.

وحملنا جرحنا الدامي حملنا
والى أفق وراء الغيب يدعونا... رحلنا
شرذمات... من يتامى
وطوينا في ضياع قاتم.. عاما فعاما

---

(١) ديوان سميح القاسم ص ٢٢، ٢٣ دار العودة بيروت سنة ١٩٧٠

وبقينا غرباء
وبكينا يوم غنى الآخرون.

ليته يعرف حدا لذلك الضياع، وخطرات من الحلم تنبئه عن يوم الخلاص. إن عدوه حُكم عليه بالتيه في سيناء أربعين عاماً يوم خان أوامر الاله يوم وقف يكابر موسى نبي الله، ولكنه عاد. وفي ثنايا قلبه كل الأحقاد. فما أقسى تلك الغربة، وما أشد لوعة الشاعر فيها!

سنوات التيه في سيناء كانت أربعين
ثم عاد الآخرون
ورحلنا... يوم عاد الآخرون
فإلى أين؟ وحتام سنبقى تائهين
وسنبقى غرباء؟.

وفي قصيدة أخرى تهاجر الطيور معه، وتبكي وتنوح أغصانها، والدوح الذي كم لعبت فيه وغنت، وكلما دنت منه معاتبة حزينة، بكى لبكائها ورثى لحالها وناداها هناك موطني وموطنك، لم أزجرك عنه ولم أحكم فيك الغراب، ولكن للدهر حكم علينا بالضياع معا، وسوف يظل بكاؤنا حتى نعود الى العش الذي بنيناه معا. إنها صورة حزينة لهذا الحمام المشرد الذي يعيش مشدوداً الى فلسطين، وهذا الشاعر الذي يردد آهات الرثاء ولا يستطيع أبداً الانعتاق من الماضي ماضي الحب والنعيم على ربوع أرضه الجميلة. يقول[1]:

يا حمام الدوح لاتعتب أسى	حسبنا ما أجهش الدوح عتابا
نحن لم نزجرك عن بستاننا	لم نحكم في حفافيك الغرابا
نحن أشباه وقد أوسعنا	غاصب الأعشاش ذلاً واغترابا
فابك في القرية عمراً ضائعاً	وارثِ عيشاً كان حلواً مستطابا
علّ نار الشجو تذكي نخوةً	في الألى اعتادوا مع الدهر المصابا
فتهد اللحد عنها جثث	ويمور البعث شيباً وشبابا

* * *

(١) ديوان سميح القاسم ص ٤٢ ـ ٤٤

يا قرى.. أطلالها شاخصة — تتقرى غائباً أبكى الغيابا
يا قرى. يؤسى قرى أجدائها — أن في النسل جراحاً تتغابى
يا قرانا نحن لم نسلُ.. ولم — نغدر الأرض التي صارت يبابا
خصبها يهدر في أعراقنا — أملا حرا، ووحيا، وطلابا
والذرى تشمخ في أنفسنا — عزةً تحتطب البغي احتطابا

تلك الذرى التي تشمخ في نفس الشاعر عزة سوف تقضي على البغي والبغاة، وتعيد الحق الى أصحابه. إن قسم الفداء يعلو هامات الشاعر كما يعلو هامات كل رجل وطفل وامرأة من فلسطين، ولن يضيع هذا القسم، بل سيظل صداه في النفوس حتى يشرق فجر الحق، وينطوي ظلام الليل الرهيب.

يا بلاداً بللت كل صدى — وصداها لم يرد الا سرابا
يا بلادي نحن ما زلنا على — قسم الفدية شوقاً وارتقابا
يا بلادي قبل ميعاد الضحى — موعد ينضو عن النور حجابا

إن حياة الشاعر في تيه الأرض مغترباً عمقت تجربته، وجعلت الحروف الكلمات عنده صوتاً موسيقياً يكتمل، ويتفاعل قبل أن يصبح ضمن بنية الكلمة، فطرق الدجى، وسكين الجرح، والأيام المشرقة بالدم، كلمات موحية ذات جرس لايكتمل الا بتألق الحروف واتساقها، ومعرفة الشاعر ماذا يريد. ومع أن الشاعر يرثي وطنه إلا أنه بهذه المعاني القوية أوحى للقارىء أن هناك قوة كامنة في نفوس أبناء الشعب سوف تحيلهم يوماً الى صاعقة تدمر العدو، وتقضي على عزوره وتعيد الأرض وتحمي العرض، وتهتف مع التاريخ هتاف المجد والعزة.

نكبة التيه أودت بنا — فطرقنا في الدجى بابا فبابا
عمقت سكينها في جرحنا — وجرت في دمنا سُماً وصابا
وتهاوينا على أنقاضنا — فخراب جثم في البؤس خرابا
ومن الأعماق.. من تربتنا — هتف التاريخ. والمجد أصابا
فإذا أيامنا مشرقة — بدم من لونه أعطى الترابا

وكم من قصة شعرية كتلك القصة الحزينة نظم سميح القاسم وعمر أبو

ريشة وتوفيق زياد ومحمود درويش وغيرهم من شعراء فلسطين السليبة، وهم وإن كانوا يلونون أشعارهم بألوان تعطي إيحاءات مختلفة نحو المقاومة وإثارة الهمم وشحذ العزائم إلا أنها في مجملها تعد رثاء لتلك الأرض العربية الغالية التي لفها ظلام البغي والعدوان، وطواها غدر المستعمرين البرابرة على مرأى ومسمع من دعاة التحضر والتقدم في القرن العشرين، إنها نفثة مصدور تخرج مكلومة محزونة ملونة بالدماء ترسل آهاتها الى كل نفس بشرية حرة علّها تفيق، وترى غياهب الظلم التي قد تؤدي بها يوماً الى نفس المصير. وهذا عمر أبو ريشة يقول[1]:

أمتي كم غصة دامية ... خنقت نجوى علاك[2] في فمي
أي جرح في إبائي راعف ... فاته الأسي، فلم يلتئم
ألإسرائيل تعلو رايةٌ ... في حمى المهد وظلِّ الحرم
كيف أغضيت على الذل ولم ... تنفضي عنك غبار التهم
أو ما كنت اذا البغي اعتدى ... موجةً من لهب أو من دم
فيم أقدمت؟ وأحجمت ولم ... يشتف الثأر ولم تنتقمي
اسمعي نوح الحزانى واطربي ... وانظري دمع اليتامى وابسمي

ومن تضرعات حائر وزفرات مجروح يناجي ربه أن يحول فلسطين الى بحر من الرمال لاخير فيه ولا نماء، حتى تغوص أقدام العدو فيها، وحتى تبقى لأبنائها، وتخرج من رملها وحصاها أنفساً ورجالاً.

رب هذي جنة ... الدنيا عبيراً وظلالا
كيف نمشي في رباها ... الخضر تيها واختيالا
وجراح الذل نخفيها ... عن العز احتيالا
ردّها قفراء. إن ... شئت وموّجها رمالا
نحن نهواها على الجدب ... إذا أعطت رجالا

(١) ديوان عمر أبو ريشة المجلد الأول ص ٨ ـ ١١ دار العودة بيروت ١٩٧١
(٢) علال. هكذا وردت في الديوان. ولعل الشاعر يقصد علاها . لاعتبارات عروضية

أما توفيق زياد فيرى في ريح الشرق دموعاً قانية تبكي وطنه الأسير، وتحمل في صريرها المفزع هتاف المشردين وآهات الثكلى وأنين المعذبين، وينادي كل رجل وكل طفل وكل امرأة أن يقفوا في ثبات وقوة دفاعاً عن الأرض والعرض، عن الشرف والكرامة، عن الجنة المسلوبة التي تنادي أفنانها وجداولها بنيها مع كل نسمة فجر تطويها حراب المستعمر وتمزق عنها أثواب الحياة.

يقول تحت عنوان « ريح من الشرق »[1]

دموع هذه الريح التي
تأتي من الشرق
محملة هتاف أحبتي الغياب
مذبوحا من الشوق
صريحا عاري النبرات
ملء الأرض، والأفق
محملة أسى الوادي
ورائحة الندى، والدم، والرقّ
على وجهي، وفي عيني
في روحي، وفي حلقي
دموع هذه الريح التي
تأتي من الشرق.

ومع هذا الرثاء الحزين، وتلك النبرة المفجوعة، فإن الشاعر شامخ الرأس مرفوع الهامة، يرى نفسه مقاتلا صامداً لايلين، دمه على كفه، وروحه العنيدة تأبى أن تخور إنه يقاتل على أشلاء رفاقه، ويدافع من وراء قبور أحبابه، إنه رثاء مفعم بالغضب، مملوء بالرغبة في الحياة، لاأنين الضعفاء، ولابكاء البائسين.

---

(١) ديوان توفيق زياد ص ٢٧ ـ ٤٠ دار العودة ـ بيروت. بدون تاريخ.

أنا ما هنت في وطني
ولاصفّرت أكتافي
وقفت بوجه ظلّامي
يتيماً عاريا، حافي
حملت دمي على كفي
وما نكُست أعلامي
وصنت العشب فوق قبور أسلافي
أناديكم أشد على أياديكم.

* * *

إنه ينادي، يصرخ، يذوب في تراب وطنه، تلاحقه مأساته، ولكنه لايتوارى فعنقه تحت السكين وحفيف الشوق الى وطنه يجعله يغمس ريشته في أعماق قلبه في شرايينه، ويأكل حائط الفولاذ الذي يحول بينه وبين هوائه، إنه يشرب الريح، ويغني للغابات ويكتب للمساكين، ويذوب حسرة، ويدمي وجه غاصبه إنه ينادي، وينادي صخر حطين، ذلك الصخر الذي شهد مجد صلاح الدين، مجد فلسطين. وعلى حافاته تحطمت أعناق المعتدين من الصليبيين.

أجيبيني..
أنادي جرحك المملوء ملحاً، يا فلسطين
أناديه وأصرخ..
ذوبيني فيه. صبيني
أنا ابنك، خلفتني ها هنا المأساة،
عنقا تحت سكين
أعيش على حفيف الشوق..
في غابات زيتوني
وأكتب للصعاليك القصائد سكّراً مراً،
وأكتب للمساكين.

واغمس ريشتي، في قلب قلبي،
في شراييني
وآكل حائط الفولاذ
أشرب ريح تشرين
وأدمي وجه مغتصبي
بشعر كالسكاكين
وإن كسر الردى ظهري،
وصنعت مكانه صوّانةً،
من صخر حطين

* * *

أما محمود درويش فثورته ديوان غضب يلف بين طياته رعوداً ووعوداً محرقة، إن وطنه نسر كسر جناحه، فهو أسير حزين عبر قضبان الخشب ومن أجله فقلبه شجرة، وجبينه منزل للقبرة يلبس إكليل اللهب، ويأكل شجر البلوط، ويتوارى مطحون الفؤاد لأنه ليس جديراً بهذا الوطن النسر. إنه يرثي نفسه ويبكي عليها قبل رثاء وطنه، ويحول رثاءه الى غضب ساحق يدمر كا شيء حتى ذاته مادام في ذلك الأمل الذي يطلق النسر من عقاله. يقول(١):

وطني أيها النسر الذي يغمد منقار اللهب
في عيوني
عبر قضبان الخشب
كل ما أملكه في حضرة الموت
جبين وغضب.
وأنا أوصيت أن يزرع قلبي شجرة
وجبيني منزلاً للقبرة

---

(١) ديوان محمود درويش ص ٥٥٢، ٥٥٣

أيها النسر الذي لست جديراً بجناحك
إنني أوثر إكليل اللهب.
وطني، إنا ولدنا وكبرنا بجراحك
وأكلنا شجر البلوط..
كي نشهد ميلاد صباحك
أيها النسر الذي يرسف في الاغلال من دون سبب
أيها الموت الخرافي الذي كان يحب
لم يزل منقارك الأحمر في عيني
سيفاً من لهب
وأنا لست جديراً بجناحك
كل ما أملكه في حضرة الموت
جبين.. وغضب!

وفي قصيدة أخرى« نداء من القبر »[1] تتلون الحياة امامهم بظلال سوداء قاتمة، فكل الناس موتى، وليس على الأرض سوى قطيع أفاع ودود، ومع تلك السوداوية وذلك البأس يقول للأحياء لاتكثروا من الأقاويل فإنها لانفع منها ولا فائدة، لأنه ورفاقه في القبور راقدون ومواويل الحزن مهما طالت فإنها لن تعيد أرضا، ولن تدفع عدوا. ويناديهم أن يغنوا لما بقي في أيديهم من أرض، وأن يجعلوا غناءهم نشيد غضب دائم تحكيه الأجيال وتحفظه الصدور.

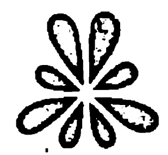
سألناكم: لانريد
على القبر ماء وزهرا
فلا شيء حي سوى
قطيع أفاع... ودود
سألناكم: لانريد
ثياب حداد
فلا لون في القبر،

(۱) ديوان محمود درويش ص ٤٠٦ - ٤٠٩ دار العودة بيروت ۱۹۷۱.

إلا السواد
سألناكم: لانريد
مواويل حزن طويله
فنحن هنا راقدون
وعودتنا مستحيلة

* * *

سألناكم أن تغنوا
لأرضكم الباقية
وأن تغضبوا
وترووا حكايتنا القانية
لأبنائكم
لتبقى علم المجرمين
دمانا...



الفصل الثاني

رثاء الزملاء والعلماء والأعيان

الدارس للأدب العربي يجد ألواناً مختلفة من فنون الأدب، لها تأثيرات متعددة ـ بتعدد هذه الفنون ـ على النفس البشرية، وعلى خط سير الحضارة ومكونات الانسان الروحية والفكرية، ولكن الذي لاشك فيه أن تأثير موسيقى الشعر في نفوسنا كان أقواها وأبعدها أثراً لأنها تنسق أحاسيسنا ومشاعرنا وخوالجنا تنسيقاً يجعلها تسمو وترتقي الى عالم الخيال والأحلام.

ويبقى صدى الشعر مدوياً في النفوس جيلا إثر جيل لا يطغى عليه فن، ولا يرد صداه حاجز، حتى بعد ظهور كثير من مكونات الحضارة الحديثة، كالصحف والمذياع والتلفاز والسينما والمسرح وغيرها مما تشارك الأدب رسالته وأهدافه، ولا عجب في ذلك: فإن الشعر قيثارة الوجدان تنطلق أنغامها الى كل نفس، فرحة أو حزينة قوية أو ضعيفة، عالمة أو جاهلة. والرثاء ـ من بين أغراض الشعر كلها ـ يعد أقواها أثراً في النفس والروح، لأنه يأتي تعبيراً عن رحلة الموت، تلك الرحلة المليئة بالأوهام والمخاوف والغيبيات، والتي ستردها كل نفس مهما طال أمدها.

والشاعر يسبح بوجدانه في هذه الرحلة فتأتيه المعاني عذبة راقية كما لم تأته في أي موقف آخر، وتمتلىء أنغامه بالرحيق الصافي الذي يغذي العقول والقلوب وتمتد آهاته الى كل نفس فتبكيها على ميته وان كان لايعرفه.

وحين يطلق الشاعر عبقريته، ويرسل فكره وخياله الى راحل طوته القبور نراه يصور مجداً مضى وعزاً قد تقضى من دنيا الناس، ولكنه عند الشاعر باق وما ومائل، وما تصويره له الا ابقاء لذكراه، وتخليد لأعماله، والثناء عليه كما كان يتلقى الثناء عن قوله وفعله في حياته.

وهذا ما يعرف بالتأبين، وهو أصلا: الثناء على الشخص حيا أو ميتا ثم قصر استخدامه على الموتى فقط.

فالعرب في الجاهلية كانوا يقفون على قبر الميت، يعددون فضائله، ويذكرون مناقبه، حتى شاع ذلك عندهم، وأصبح من عاداتهم، وتوازن بكاؤهم على فقده مع بكائهم على كرمه وشجاعته ووفائه وحمايته للجار وإغاثته للملهوف وحلمه، وأنفته وحزمه وسماحته وفصاحته وشرفه، وكل ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال، وكأنهم يريدون أن يصوروا تصويراً تاما مدى الخسارة في فقيدهم.

وكما أبنوا أبطالهم وقتلاهم، أبنوا (أشرافهم وسادتهم، وان ماتوا حتف أنوفهم، وكان من أهم ما يخلدهم في رأيهم هذه الأبيات من الشعر التي يصوغ فيها الشاعر محاسنهم ومناقبهم، كأنه يريد أن يحفرها في الأذهان حفراً، حتى لاتمحى على مر الزمان، وحتى لايصيبها شيء من زوال أو نسيان.

وقد ظل ذلك النمط وتلك العادة في نفوس شعراء العرب بعد الاسلام ولكن مع بعض التعديل في نوعية المثل والمناقب التي يقف عليها الشاعر، والتي يريد لها البقاء والخلود فتأبين الخلفاء والشهداء وعظماء المسلمين يختلف بلا شك عن تأبين عظيم من عظماء الجاهلية من حيث ذكر المناقب والصفات والأفعال، ولكن جوهر الفكرة والغاية واحد حتى عصرنا الذي نحن فيه.

وكما أبن الشعراء في الجاهلية والاسلام الحكام والقادة، أبنوا أيضاً الأشراف والسادة الذين اشتهروا بالكرم والسماحة والعفة والنزاهة والذين كانوا يهبون لنجدة الملهوف، ويقفون بجانب البريء والمظلوم.

ولقد عرف المسلمون أيام مجد وعز كما عرفوا أيام بؤس وشقاء، وقد كانت الحروب الصليبية ميداناً برز فيه القواد والزعماء والأشراف، وضحى فيها المضحون بالنفس والروح حتى تمكن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي من كسر شوكتهم وردهم عن بلاد الاسلام، وازاحتهم عن القدس الشريفة قبلة المسلمين الأولى ومهبط الأنبياء، وكانت وفاة نور الدين محمود وخزا من الألم لنفوس الناس، ولكنها كانت الهاماً للشعراء، فأخذوا

ينظمون فيه الشعر ويؤبنونه بما يليق به من ذكر صفات الإباء والمنعة، وحسن السيرة والرجولة.

وخلفه صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر ومؤسس الدولة الأيوبية بها، وكان في دفاعه عن بلاد المسلمين مثلا من أمثلة البطولة والفداء التي ترتقي في أعمالها وخلقها الى أمثلة المسلمين الأول في عصر صدر الاسلام، وظل في كفاحه لاينثني حتى خلص بيت المقدس وغيره من بلاد الشام من أيدي الصليبيين، وحين وافته منيته رثاه الشعراء وأبنوه بمئات القصائد وأطال فيه العماد الأصفهاني حتى بلغت احدى قصائده فيه اثنين وثلاثين ومائتي بيت.

وهكذا كانت عبقرية الشعر تسعف الشعراء بعطائها الجزل، ونغمها العذب ومعانيها الرائعة كلما طوى الدهر زعيماً أو قائداً أو شريفاً من أبناء الأمة العربية.

ويدور التاريخ دوراته بين سعد ونحس، وتمضي الأيام بين صفاء وشقاء، ويتابع الشعراء مسيرتهم حتى نصل الى العصر الحديث بين أنات الشعراء وصياحهم على من يتوفون من سلاطين المماليك وعلية القوم، ورؤسائهم وأجوادهم، وتستمر التموجات الرثائية حتى نلتقي بحافظ وشوقي، فنجد لمراثي القادة والأعيان والعلماء مكاناً بارزاً في ديوانيهما، وأكثر حافظ في ذلك لأنه كان في تكوينه وتلوين حياته وليد آلام وصراعات متعددة ألجأته في أوقات كثيرة الى كبار القوم يحتمي بهم ويبتغي خيرهم فاذا ما فجع فيهم ذهب ينشج وينوح عليهم بعاطفة حزينة صادقة، ووجدان محترق على كريم رحل من غير عودة.

وأما شوقي فقد كان ثرياً محظوظاً في حياته وعمله وعترته. لذلك كان غالباً ما يملأ رثاءه وتأبينه للزعماء والقادة بالحكم والأمثال التي تدل على عمق فكرته وبعد نظره وان كانت العاطفة فيها ليست مشبوبة ملونة بالسواد والحزن كما هي عند حافظ.

ومن أمثلة ذلك قول حافظ في سليمان أباظة[1]:

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم جـ٢ ص ١٣٣، ١٣٤

رحم الله منه لفظاً شهيا	كان أحلى من ردّ كيد الأعادي
رحم الله منه طرفاً تقيا	ويميناً تسيل سيل الغوادي
رحم الله منه شهماً وفياً	كان ملء العيون في كل نادي
الهم الله فيك صبراً جميلاً	كلّ من بات ناطقاً بالضاد

ويقول ايضاً[1]:

أودى سليمان فأودى بعده	حسن الوفاء وبهجة العلياء
لاتحملوه على الرقاب فقد كفى	ما حملت من منّه وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه	يسري به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده	مذ لامسته لأورقت للرائي
خلق كضوء البدر أو كالروض أو	كالزهر، أو كالخمر، أو كالماء
وشمائل لو مازجت طبع الدجى	ما بات يشكوه المحب النائي
ومحامد نسجت له أكفانه	من عفة، وسماحة، وإباء

وللعلماء والأدباء مكانة كبيرة في نفوس الشعراء عبر مختلف العصور، ودواوين الشعر القديمة مليئة بتأبينهم وذكر أفضالهم على العلم والأدب والاشادة بأعمالهم وأقوالهم.

وقد ظل ذلك الأثر يتتابع إلى عصرنا الذي نحن فيه، ومن أمثلة ذلك عند حافظ ابراهيم قوله في رثاء محمود سامي البارودي القائد الشاعر الجواد[2]:

لبيك يا مؤنس الموتى وموحشنا	يا فارس الشعر والهيجاء والجود
ملك القلوب ـ وأنت المستقل به	أبقى على الدهر من ملك « ابن داود »
لقد نزحت عن الدنيا كما نزحت	عنها لياليك من بيض ومن سود
اغضت عينيك عنها وازدريت بها	قبل الممات ولم تحفل بموجود

(١) ديوان حافظ ابراهيم جـ ٢ ص ١٣٥
(٢) ديوان حافظ ابراهيم جـ ٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٣

لبيك يا شاعراً ضنَّ الزمان به — على النهي والقوافي والأناشيد
تجري السلاسة في أثناء منطقه — تحت الفصاحة جري الماء في العود
في كل بيت له ماء يرفّ به — يغار من ذكره ماء العناقيد
لو حنطوك بشعر انت قائله — غنيت عن نفحات المسك والعود

ثم يقول:

كنت الوزير وكنت المستعان به — وكان همك هم القادة الصيد
كم وقفة لك والأبطال طائرة — والحرب تضرب صنديداً بصنديد
تقول للنفس إن حاشت اليك بها — هذا مجالك سودي فيه أو بيدي
نسخت يوم كريد كل ما نقلوا في — يوم «ذي قار» عن (هاني بن مسعود)[1]

ويقول:

لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة — من كنز حكمته لا جوف أخدود
وكفنوه بدرج من صحائفه — أو واضح من قميص الصبح مقدود
وأنزلوه بأفق من مطالعه — فوق الكواكب لا تحت الجلاميد
وناشدوا الشمس أن تنعي محاسنه — للشرق والغرب والأمصار والبيد
أقول للملإ الغادي بموكبه — والناس ما بين مكبود ومفؤود
غضوا العيون فان الروح يصحبكم — مع الملائك تكريماً لمحمود

ومن روائع مراثيه في العلماء وأهل الفضل رثاؤه للامام الشيخ محمد عبده[2] وفيه يقول[3]:

سلام على الاسلام بعد محمد — سلام على أيامه النضرات

---

(١) يشير الى وجود محمود سامي البارودي مع قوات الخلافة التي ذهبت لاحباط التمرد الذي حدث على الدولة العلية في جزيرة «كريت» سنة ١٨٦٦م. وكان البارودي ضابط أركان حرب في هذه المعارك وله بطولات مشهورة.

(٢) توفي الشيخ محمد عبده سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م.

(٣) ديوان حافظ ابراهيم جـ ٢ ص ١٤٤ - ١٤٨.

على الدين والدنيا، على العلم والحجا   على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت اخشى عادي الموت قبله   فأصبحت اخشى ان تطول حياتي
فوا لهفي ـ والقبر بيني وبينه   على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً   كأني حيال القبر في عرفات
لقد جهلوا قدر الامام فأودعوا   تجاليده في موحش بفلاة
ولو صرحوا بالمسجدين لأنزلوا   بخير بقاع الأرض خير رفات
تباركت هذا الدين دين محمد   أيترك في الدنيا بغير حماة؟
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى   ولانت قناة الدين للغمرات

ثم يقول:

لقد كنت فيهم كوكباً في غياهب   ومعرفة في أنفس نكرات
أبنت لنا التنزيل حكماً وحكمة   وفرقت بين النور والظلمات
ووقفت بين الدين والعلم والحجا   فأطلعت نوراً من ثلاث جهات
وقفت لـ «هانونو» و« رينان » وقفة   أمدك فيها الروح بالنفحات[1]
وخفت مقام الله في كل موقف   فخافك أهل الشك والنزعات

ويقول الشاعر محمد عبد المطلب في رثاء « اسماعيل عاصم » أحد اعمدة القانون في مصر وأحد رجالها الكرام الأجاويد[2]:

وارحمتاه يا مصر ما للردى   عوَّدَ فيك الدهر أن تفجعي
ما جف ماء الحزن من مدمع   الآ لينساب الى مدمع

(١) يشير الى (جبرائيل هانونو) السياسي المؤرخ الفرنسي المولود في ١٩ من نوفمبر سنة ١٨٥٣ م والذي كان يكتب مقالات حادة يطعن فيها الاسلام والمسلمين. وتعرض له الامام محمد عبده بالرد وأبطل آراءه المفروضة كما يشير الى «رينان» الفرنسي أيضا المولود في ٢٧ من فبراير سنة ١٨٢٣ م وكان كاثوليكيا دأب على الطعن في الاسلام كصاحبه السابق، ورد الامام عليه أيضا وسفه أقواله بالحجج الدافعة وتوفي « رينان» سنة ١٨٩٢ م، وهانونو بعد ذلك بعدة أعوام.

(٢) ديوان محمد عبد المطلب ص ١٣٢

ولا فضضنا للاسى مجمعاً إلا رددناه الى مجمع
يا أيها الثاوي ببطن الثرى مصر تناديك ألم تسمع
تنشر في أبنائها «عاصما» ترجوه يوم الحادث المفزع
تنشد «إسماعيل» فيمن مضى ثكلته يا مصر باسترجعي
يا تارك القانون في لوعة يسكب منهلاً من الأدمع

وكان شوقي عاشقاً للعلم والعلماء، وللأدب وأهله، لذلك كان رثاؤه وتأبينه لهم يأتي دائماً أجود ما تفيض به نفسه المعطاءة ويكاد من خلال عرضه لحياة الميت وأعماله وأقواله ينقله من عالمه الذي أصبح فيه ذكرى الى عالم الأحياء الذي يعمل الناس فيه يكدون ويكدحون. واستمع إليه يقول في أبي هيف[1] أحد رجال القانون الأعلام[2]:

إجعل رثاءك للرجال جزاء وابعثه للوطن الحزين عزاء
إن الديار تريق ماء شؤونها كالأمهات وتندب الأبناء
تكل الرجال من البنين، وانما تكل الممالك فقدها العلماء
يجزعن للعلم الكبير اذا هوى جزع الكتائب قد فقدن لواء
علم الشريعة أدركته شريعة للموت ينظم حكمها الأحياء
عانى قضاء الأرض علم محصل واليوم عالج للسماء قضاء
ومضى وفيه الشباب بقية للنفع أرجى ما تكون بقاء[3]
بالأمس كانت لابن هيف غضبة للحق نذكرها يدا بيضاء

وتأبين شوقي للرجل يدل على أنه كان يعلم تماماً أن العالم حين يرحل عن الدنيا لايبكيه أهله وأصدقاؤه وتلاميذه فحسب، وانما تبكيه أمته كلها،

---

(١) توفي عبد الحميد أبو هيف سنة ١٩٢٦م.
(٢) الشوقيات جـ ٣ ص ٩ - ١١
(٣) يشير الى موقفه ضد مشروع (ملنر) الذي أشرنا اليه قبل ذلك في ثنايا الحديث عن ثورة ١٩١٩ م.

لأنه أحد دعائمها القوية، والخسارة فيه تتعدى حدود المألوف عند موت إنسان عادي حتى ولو كان من ذوي الجاه والسلطان.

ونحن نرى ذلك واضحاً في رثائه للعالم والطبيب المبدع « عثمان غالب »[1] حيث يقول[2]:

ضجت لمصرع غالب ... في الأرض مملكة النبات
أمست « بتيجان » عليـ ... ـه من الحداد منكسات
في مأتم تلقى الطبيعـ ... ـة فيه بين النائحات
وترى « نجوم الأرض » من ... جزع موائد كاسفات
والزهر « أكمامه » ... يبكي بدمع الغاديات
أما مصاب الطب فيـ ... ـه فسل به ملأ الأساة
أودي الحمائم بشيخهم ... ومآبهم في المعضلات
قد كان حرب الظلم حر ... ب الجهل حرب الترهات
علم الورى في علمه ... في الغرب مغترب الرفاة

ومن قوله في « عمر لطفي » أحد علماء القانون المشهورين[3] يرثيه ويذكر بمواقفه الوطنية والاجتماعية[4]:

قفوا بالقبور نسائل عمر ... متى كانت الأرض مثوى العمر
سلوا الأرض: هل زينت للعـ ... ـليم وهل أرجت كالجنان الحفر؟
وهل قام رضوان من خلفها ... يلاقي الرضى التقي الأبر؟
فلو علم الجمع ممن مضى ... تنحى له الجمع حتى عبر

---

(١) عثمان باشا غالب كان طبيبا عظيما، وعالما بالنبات يشار اليه بالبنان. توفي في باريس سنة ١٩٢٠ م.

(٢) الشوقيات حـ ٣ ص ٤٩، ٥٠.

(٣) توفي عمر بك لطفي سنة ١٩١١ م وكان عالما قانونيا ضليعا. كما كان في حياته يتقد غيرة على قوميته وحبا لمصلحة بلاده، وهو في طليعة مؤسسي نقابات التعاون في مصر.

(٤) الشوقيات جـ ٣ ص ٨٣، ٨٤.

الى جنـة خلقت للكـريـم		ومن عرف الله، أو من قدر
فكم لـك كالنجم من رحلة		رأى البـدو آثـارهـا والحضـر
« نقـاباتـك » الفر تبكي عليـك		ويبكي عليك « الندى » الأغر
ففيك عرفت ارتجال الدموع		ومنـك علمت ارتجال الـدرر
فمثلك يـرثي بـآي الكتـاب		ومثلك يفـدى بنصف البشر

وفي حفل تأبينه قال[1]:

اليوم أصعد دون قبرك منبراً		وأقلد الـدنيا رثـاءك جوهـرا
وأقصي من شعري كتاب محاسن		تتقـدم العلماء فيـه مسـطرا
ذكرا لفضلك عند مصر وأهلها		والفضل من حرماته أن يذكرا
العلم لايعـلى المراتب وحـده		كم قدم العمل الرجال وأخرا
شهد الأعادي كم سهرت لمجده		وغدوت في طلب المزيد مشمرا
وكم اتقيت الكيد واستدفعته		وغدوت في طلب المزيد مشمرا
ولبثت عن حوض الشبيبة ذائداً		حتى جزاك الله عنه الكـوثرا

واذا كان العلماء قد استأثروا بكثير من مراثي شعرائنا في القديم والحديث فان الأدباء نالوا من ذلك الحظ الأوفر، سواء أكانوا كتاباً أم كانوا شعراء، ولا غرابة في ذلك، فهم ومن يقوم على رثائهم وتأبينهم من الشعراء أبناء مهنة واحدة، وأتباع درب في الحياة متشابه، يشد وجدانهم النغم الحلو، والكلمة المعبرة، والمعنى الصادق، والتعبير الحي، والفكرة الخلاقة لذلك كان تأبينهم أشبه ببكاء الأخوة، ونواح الأبناء والأهل ولنسمع معاً ما قال شوقي[2]: في رثاء محمد تيمور[3]. . . وأنه ليقول:

---

(١) الشوقيات جـ ٣ ص ٨٥ ـ ٨٧.
(٢) الشوقيات جـ ٣ ص ٢٦ ـ ٢٨
(٣) محمد تيمور: أديب كبير اشتهر بوضع القصص الاجتماعية، ولكن الموت لم يمهله فاخترم شبابه في سنة ١٩٢١ م.

يــا نــائــحــات مـحــمــد نــحــنــه عــمــق الإهــاب
في مــأتــم لم تخــل فــيــ ـه الم المكرمات من انتخاب
تبكي الكــريم عـلى العشـ ـيرة والحبيب الى الصحاب
يــا وارث الحبّ الـصـمــ ـيم وكـاسب الأدب اللبـاب
وابـن الــذي علم الــرجّـا ل حيــاءه من كـل عـاب
وكـأنــه في كــتــبــه عثمــان في ظــل الـكتــاب

وفي رثائه يعقوب صروف[1] يقول[2]:

ألا في سبيل العلم خمسون حجة مضت بين تعليم وبين طلاب
قـطعت طوالي ليلهـا ونهارها بآمال نفس في الكمال رغاب
رأى الله أن تلقى إليك صحيفة فنزهتها عن هـوشة وكـذاب
ولم تتخذها آلة الحقد والهوى ولامنتدى لغو وسـوق سباب
سلام على شيخ الشيوخ ورحمة تحدر من أعطاف كل سحاب
ورفاف ريحان يروح ويغتدي على طيبات في الخلال رطاب
نعيش ونمضي في عذاب كلذة من العيش، أو في لذة كعذاب
ذهبنا من الأحلام في كل مذهب فلما انتهينا فسرت بـذهـاب
وكل أخي عيش وإن طال عيشه تراب لعمر الموت وابن تراب

وعندما يندب الشاعر شاعراً مثله، تحس من خلال آهاته انه جريح حتى الموت، ففي قريضهما تشابه، وفي مشاعرهما لقـاء، وفي أخيلتهما ومعـانيهما انصهار وتواد.

وهذا شوقي يؤبن الشاعر محمد عبد المطلب[3] فيقول[4]:

---

(١) يعقوب صروف: أحد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم، كان متبتلا للعلم، ومعدوداً في طليعة الكتاب والعلماء الذين يشار اليهم بالبنان توفي سنة ١٩١٨.
(٢) الشوقيات جـ٣ ص٢٩ - ٣٢.
(٣) الشاعر محمد عبد المطلب كان أستاذاً بدار العلوم. وكان ينظم الشعر مؤثراً في نظمه طريقة البادية، لذلك لقب بشاعر البدو. وقد توفي سنة ١٩٣١م.
(٤) الشوقيات جـ٣ ص٣٦، ٣٧.

نـزل التـرب عـلى من قبله كـل حي منتهـاه في التـرب
ذهـب الـلين في ارشـاده كالأب المشفق والجد الحذب
القريب العتب من معنى الرضا والقريب الجد من معنى اللعب
والأخ الصـادق في الـود إذا ظهر الأخوان بـالود الكـذب

ويقول الشاعر اسماعيل صبري[1]:

ذهب الذبيح السمح مثل سميعه طهر المكفن، طيب الألفاف
كم بات يذبح صدره لشكاته أتـراه يحسبهـا من الأضياف؟
نم ملء جفنك، فالغد وغوافل عما يروعك، والعشيّ غوافي
في مضجع يكفيك من حسناته أن ليس جنبك عنه بالمتجافي
فاذهب كمصباح السماء، كلاكما مال النهار بـه، وليس بطافي
الشمس تخلف بالنجوم وأنت بالـ ـآثـار والأخبـار والأوصـاف
غلب الحياة فتى يسد مكانها بالذكر، فهو لها بديـل وافي

وليس هنا أروع من رثائه لزميله ورفيقـه على الـدرب الشاعـر حافظ ابراهيم[2] الذي أراد القدر أن يرحلا عن الحياة في عام واحد، وان كان حافظ قد سبق شوقيا بشهور قليلة ـ حيث يقول[3]:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت، وكل طول سلامة قـدر، وكـل منيـة بقضـاء
الحق نادى فاستجبت ولم تزل بالحق تحفل عنـد كل نـداء
وددت لو أني فداك من الردى والكاذبون المرجفون فـدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى الموغرون الموتى على الأحيـاء
يا حافظ الفصحى، وحارس مجدها وامام من، نجلت من البلغاء

---

(١) اسماعيل صبري، كان يلقب بشيخ الشعراء، وكان أحد رجال الدولة الأعلام، تـولى كبار المناصب وتوفي سنة ١٩٢٤م. انظر الشوقيات جـ٣ ص١٠٤ ـ ١٠٩.
(٢) توفي حافظ ابراهيم سنة ١٩٣٢م
(٣) الشوقيات جـ٣ ص٢٢ ـ ٢٥

ما زلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء
جددت أسلوب « الوليد »، ولفظه وأتيت للدنيا بسحر « الطائي »
وجريت في طلب الجديد الى المدى حتى اقترنت بصاحب «البؤساء »
ماذا وراء الموت من سلوى، ومن دعة، ومن كرم، ومن إغضاء.
اشرح حقائق ما رأيت، ولم تزل أهلا لشرح حقائق الأشياء
خلّفت في الدنيا بياناً خالداً وتركت أجيالا من الأبناء
وغداً سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر انصاف وحسن جزاء

وليس المجال هنا لحصر كل ما قيل في الأدباء والشعراء، وانما قصدت عرض بعض الأمثلة الدالة على صور من ندب وتأبين الشعراء لرفقائهم وزملائهم ولكن الذي لاشك فيه أن الكتاب العرب المحدثين كان لهم نصيب كبير من المراثي، خاصة من اشتغلوا منهم بالصحافة، وأسهموا في حياتنا الأدبية وتصدوا للعدو، ووقفوا أعمارهم على الكفاح من أجل العلم والتقدم، وعملوا بجد في سبيل رقي الأمة والنهوض بها.

ودواوين شعراء هذه الحقبة ممتلئة بما يؤيد ذلك، ويكفي أن نرجع الى ديواني حافظ وشوقي لنجد عندهما مراثي لكثير من الكتاب العصريين أمثال « جورجي زيدان » و « الشيخ علي يوسف » صاحب المؤيد، و « الشيخ عبد العزيز جاويش » رئيس تحرير اللواء والعلم، وأمين الرافعي « صاحب صحيفة الأخبار »، و « محمد المويلحي » الذي كان يحرر مع أبيه « ابراهيم » - صحيفة « مصباح الشرق » والذي ألف حديث « عيسى بن هشام » وصور فيه حياتنا العصرية في أواخر القرن الماضي ناقداً ما اقتبسناه من أوربة من عادات وأخلاق مجرياً ذلك في شكل قصصي يعتمد على الحوار ورسم الشخصيات.

وغير هؤلاء وأولئك كثيرون ممن لايتسع المجال لذكرهم، ولنقرأ معاً ما قال حافظ في بعض هؤلاء.

قال في رثاء « جورجي زيدان »[1]:

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم جـ٢ ص١٨٣ - ١٨٦.

دعاني رفاقي والقوافي مريضة وقد عقدت هوج الخطوب لساني
فجئت وبي ما يعلم الله من أسى ومن كمد قد شفني وبراني
مللت وقوفي بينكم متلهفاً على راحل فارقته فشجاني
أفي كل يوم يضع الحزن بضعه؟ من القلب إنّي قد فقدت جناني
كفاني ما لقيت من لوعة الأسى وما نابني يوم « الامام » كفاني
ومالي صديق ان عثرت أقالني وما لي قريب إن قضيت بكاني
أراني قد قصّرت في حق صحبتي وتقصير أمثالي جناية جاني
وفي ذمتي « لليازجي » وديعة وأخرى « لزيدان » وقد سبقاني[1]
فيا ليت شعري ما يقولان في الثرى إذا التقيا يوماً وقد ذكراني؟

ويا قبر زيدان » طويت مؤرخاً تجلى له ما أضمر الفتيان
وعقلاً ولوعاً بالكنوز فانه على الدر غواص ببحر « عمان »

وقال في رثاء أمين الرافعي[2]:

أما « أمين » فقد ذقنا لمصرعه وخطبه من صنوف الحزن ألوانا
لم تنسنا ذكره الدنيا وإن نسجت للراحلين من النسيان أكفانا
مضى نقياً عفيف النفس محتسباً فهدَّ من دولة الاخلاق أركانا
جرى على سنن التوحيد نشأته في الله والرأي اخلاصاً وايماناً
لم يلن عوده للخطب يرهقه قسا عليه شديد العيش أم لانا
ولم يلوه المال عن رأي يدين به (ولو حملت اليه الدهر ملآنا)
ظلم من القبر أن تبلى أنامله فكم رمت في سبيل الله من خانا

---

(١) جورجي زيدان: ولد في بيروت سنة ١٨٦١م ثم رحل الى مصر وأصبح من أعلام التاريخ والأدب المشهورين، وهو منشىء مجلة الهلال المعروفة. توفي في أغسطس سنة ١٩١٤ ومن تآليفه الهامة: تاريخ مصر الحديث وتاريخ التمدن الاسلامي وتاريخ الأدب العربي وتاريخ الماسونية. وعشرات الروايات الجيدة، وغير ذلك من الكتب.

(٢) ولد أمين الرافعي في ديسمبر سنة ١٨٨٦ م وتوفى في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧ م ، وكان من كبار الكتاب السياسيين وهو صاحب صحيفة الأخبار ، وله مواقف وطنية مشهورة.

« أمين » فارقتنا في حين حاجتنا | الى فتى لايرى للمال سلطانا
« أمين » حسبك ما قدمت من عمل | فأنت أرجحنا في الحشر ميزانا

وأثناء جنازة الكاتب الصحفي « محمد المويلحي »[1] قال مرتجلا خلف نعشه[2]:

غاب الأديب أديب « مصر » واختفى | فلتبكه الأقلام أو تتقصفا
لهفي على تلك الأنامل في البلى | كم سطرت حكما وهزت مرهفا
مات (المولحي) الحسان ولم يمت | حتى غزا « عيسى » العقول وثقفا

وقال في تأبينه أيضاً[3]:

دمعة من دموع عهد الشباب | كنت خبأتها ليوم المصاب
لبت اليوم يا « محمد » لما | راعني نعي أكتب الكتاب
كنت لا ترتضي النجوم محلا | فلماذا رضيت سكنى التراب

كنت راح النفوس في مجلس الأنس وراح العقول عند الخطاب

كنت لاترهق الصديق بلوم | لا.. ولاتستبيح غيب الصحاب
لو شهدتم (محمداً) وهو يملي | آي « عيسى » ومعجزات الكتاب
وقفت حوله صفوف المعاني | وصفوف الألفاظ من كل باب
لعلمتم بأن عهد « بنِ بحر » | عاود الشرق بعد طول احتجاب
أدب مستور وقلب جميع | وذكاء يريك ضوء الشهاب

---

(١) ولد محمد ابراهيم المويلحي بالقاهرة سنة ١٨٥٨ م ، وكان من أعلام الكتاب المشهورين في مصر وأبوه كذلك، اشترك في تحرير عدة صحف ، وهو صاحب صحيفة (مصباح الشرق) ومن مؤلفاته الهامة حديث عيسى بن هشام . توفي أول مارس سنة ١٩٣٠ م.

(٢) ديوان حافظ ابراهيم جـ ٢ ص ٢٣٨ .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم جـ ٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٤١

كان تربي وكان من نعم المبدع	سبحـانـه عـلى الأتــراب

واذا ما رجعنا الى عهود السلف وجدنا أن الأدباء والشعراء استأثروا بالحظ الأوفر من الرثاء، ووقف الشعراء على قبورهم وقفات مملوءة بالحزن والألم ونسجوا على ثراهم أروع المعاني وأشجاها، حتى لو كانوا على خلاف معهم في الراي قبل أن يخترمهم الموت ويطويهم الردى.

وللشريف الرضي مرثيتان مشهورتان في أكبر كاتبين في عصره، وهما أبو اسحاق الصابي شيخ الكتاب في بغداد، والصاحب بن عباد وزير البويهيين، وخير كتابهم.

ومن قول الشريف في أولهما[١]: من قصيدة طويلة من مطالعها:

أعلمت من حملوا على الأعواد؟	أرأيت كيف خبا ضياء النادي
جبل هوى لو خرّ في البحر اغتدى	من وقعـه متتـابـع الإزباد
ما كنت أعلم قبل دفنك في الثرى	أن الثرى يعلو على الأطـواد
بعداً ليومك في الزمان، فإنه	أقذى العيون وفتّ في الأعضاء
لاينفذ الدمع الذي يبكى به	إن القلوب لـه من الإمـداد

ويقول في الصاحب بن عباد[٢] من مرثية طويلة أيضاً[٣]:

أكـذا المنون يفـطر الأبطالا؟	أكذا الزمان يضعضع الأجيالا؟
جبل تنـسـمت البلاد هضـابه	حتى إذا مـلأ الأقـاليم زالا
يا طالباً من ذا الزمان شبيهه	هيهـات كلّفت الزمـان محالا
إن الزمان أضنّ بعـد وفاتـه	من أن يعيـد لمثله أشكـالا
صلى الاله عليك من متوسد	بعد المهاد، جنـادلاً، ورمالا

---

(١) ديوان الشريف الرضي جـ ١ ص ٣٨١ - ٣٨٦.

(٢) الصاحب بن عباد هو أبو القاسم اسماعيل بن عباد، توفي في يوم الأربعاء لعشر ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ.

(٣) ديوان الشريف الرضي جـ ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٩

ويروى أن أبا العلاء المعري لما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مراثي يبكونه فيها[1] ويبكون الشعر والعلم والثقافة، وبعد النظر والتأمل وبما قيل فيه من مرثية طويلة لتلميذه علي بن الهمام[2]:

إن كنت لم ترق الدماء زهادةً فلقد أرقت اليوم من جفني دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنه مسك مسامعها يضمخ أو فما
وأرى الحجيج إذا أرادوا ليلة ذكراك أخرج فدية من أحرما

ورثاه أيضاً أبو الفتح الحسن بن عبيد الله بن أبي حصينة المصري فأجاد وأطال، ومما قاله[3]:

العلم بعد أبي العلاء مضيَّع والأرض خالية الجوانب بلقع
أودى وقد ملأ البلاد غرائبا تسري كما تسري النجوم الطلَّع
ما كنت أعلم وهو يودع في الثرى أن الثرى فيه الكواكب تودع
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه إن الجبال الراسيات تزعزع
وعجبت أن تسع المعرة قبره ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
لو فاضت المهجات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
تتقدم الدنيا وتأتي بعده أمم وأنت بمثله لاتسمع

ولما قتل المتنبي أقام الشعراء عليه المآتم في كل مكان، ومن الذين رثوه وأحسنوا القول فيه أبو القاسم مظفر بن علي الطبسي، وأبو الفتح ابن جني.

---

(١) انظر ياقوتا جـ ٣ ص ١٢٦ ط أولى سنة ١٩٠٧.

(٢) انظر رسائل أبي العلاء ص ١٠٢ ط بيروت سنة ١٨٩٤ م وتجديد ذكرى أبي العلاء لطه حسين ص ٧٦ ط دار المعارف سنة ١٩٦٣ م، وسقط الزند جـ ٤ ص ١٦٦ جـ ١ الدار القومية سنة ١٩٦٤ م.

(٣) انظر رسائل أبي العلاء ص ١٠٢ جـ ١ بيروت سنة ١٨٩٤ م وتجديد ذكرى أبي العلاء لطه حسين ص ٧٦ ١ جـ ١ دار المعارف سنة ٦٣ وسقط الزند حـ ١ ص ١٦٦ حـ ١ الدار القومية سنة ١٩٦٤.

القائل في مطلع مرثيته[1]:

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوحت بعد ري دوحة الكتب

ومن قول أبي القاسم مظفر الطبسي[2]:

ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثانٍ يرى لبكر الزمان؟
كان من نفسه الكبيرة في جيش وفي كبرياء ذي سلطان
هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

وممن بكاهم اخوانهم وأعولوا في بكائهم أبو تمام وفيه يقول علي بن الجهم[3]

غاصت بدائع فطنة الأوهام وعدت عليها نكبة الأيام
وغدا القريض ضئيل شخص باكياً يشكو رزيته الى الأقلام
وتأوهت غرر القوافي بعده ورمى الزمان صحيحها بسقام
أودى مثقفها ورائض صنعها وغدير روضتها أبو تمام

وكما كان شعراؤنا يفعلون في العصور الماضية، فانهم في عصرنا الحديث يستبقون الى هذا الواجب استباقاً، وتسعفهم طاقة الشعر بأرقى المعاني وأجملها في رثاء زملائهم وتأبينهم، ويحاول كل منهم اظهار وفائه لزميله، وتصوير

---

(١) انظر «المتنبي» دراسة عامة لجورج غريب ص ٤٢ جـ ١ دار الثقافة ببيروت طبعة أولى سنة ١٩٦٧ م، وانظر أيضا الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني ص ٤١٥ - ٤٢٨ جـ ١ رابعة سنة ١٩٨٦ هـ - ١٩٦٦ م مطبعة عيسى الباب الحلبي - مصر.

(٢) انظر «المتنبي» دراسة عامة لجورج غريب ص ٤٢ جـ ١ دار الثقافة ببيروت طبعة أولى سنة ١٩٦٧م ، وانظر أيضا الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٤١٥ - ٤٢٨ جـ ١ أربعة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر.

(٣) ديوان علي بن الجهم ص ١٨١ طبع صادر بيروت سنة ١٩٦٦، أو انظر كتاب علي بن الجهم - حياته وشعره لعبد الرحمن باشا ص ١٣١، ١٣٢ جـ ١ دار المعارف.

رحيله عن الدنيا تصويراً يصل الى حد الكارثة التي لاتحد ولاتوصف، ويجعلون من فقدانه مأتماً للفن والشعر يبكي فيه الوطن قبل الشعراء، وينوح عليه الأصدقاء والزملاء.

ولعل أهم شاعر لبست له مصر ثياب السواد في مفتتح هذا القرن هو البارودي أبو الشعر العربي الحديث الذي نفخ في روحه وبعثه من موته ورقاده. وجعل من صياغته ومعانيه فنا يقف مع الفنون الأخرى ان لم يرتق عنها، وحول القصائد من الصنعة والركاكة الى روعة الفصحى، ورقة الطبع، وجمال الأداء[1]، وفيه يقول اسماعيل صبري[2]:

أأول يوم لعهد الربيع تجف الرياض ويذوي الزهر
ويذبل زهر القريض الشري ويقفر روض القوافي الغرر

ويندبه حافظ مشيداً بجهوده الفنية، وأياديه البيض على الشعر وعلى العربية فيقول[3]:

لبيك يا شاعراً ضنّ الزمان به على النهى والقوافي والأناشيد
تجري السلاسة في أثناء منطقه تحت الفصاحة جري الماء في العود

ونال المطربون والملحنون نصيبهم من رثاء الشعراء لهم، والوقوف على قبورهم وندبهم بما يخلد ذكراهم، ويبقي أثرهم، وأقاموا لهم حفلات للتأبين كما أقاموا للشعراء والأدباء، ومن قول شوقي في المغني الشهير «عبد الحي»[4]

طوى البساط وجفت الأقداح وغدت عواطل بعدك الأفراح
وانفض ناد بالشام، وسامر في مصر أنت هزاره الصداح
وتقوصت للفن أطول سرحة يغدي الى أفيائها ويراح
والله ما أدري وأنت وحيده أعليه يبكى أم عليك يناح؟

---

(١) ولد البارودي سنة ١٢٥٥ هـ، وتوفي سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م.
(٢) ديوان اسماعيل صبري ص ٢٢٠
(٣) ديوان حافظ ابراهيم جـ٢ ص ١٣٩
(٤) الشوقيات جـ٣ ص ٥١، ٥٢. توفي عبد الحي سنة ١٩١٢ م.

ملك الغنـاء أزاله عن تُخْـنة قـدر يزيـل الراسيـات متاح

ومن قوله في « عبده الحامولي »[1] المطرب الذائع الصيت في أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضي[2]:

ساجع الشرق طار عن أوكاره وتـولى فـن عـلى آثـاره
غاله نـافذ الجنـاحين مـاض لاتفـر النسـور من أظفـاره
كـان مزمـاره فـأصبـح داوو د كئيبـاً يبكي على مـزمـاره
فجع الناس يوم مات الحمولي بـدواء الهمـوم في عـطّاره
يـأبي الفن، وابنـه، وأخيـه القـوي المكـين في أسـراره

ولحافظ مقطوعة في رثاء محمود الحمولي ابن هذا المغني، وقد توفي بعد قرانه بقليل يقول فيها[3]:

شـوقتمـاني أيهـا الفرقـدان لبـدر تمّ غـاب قبـل الأوان
وكـلما أشـرقـتـما مـرة علّمتـما عيني نـظم الجمـان
عـلى عـزيـز قـد تـولى ولن يـؤوب حتى يرجع القـارظان
عجلت يا « محمود » في رحلة قرّت بها أعـين حور الجنـان
كـأنمـا آخـر عهـد الهنـا قـد كان منـا ليلة المهرجـان

ولشوقي مرثية طويلة ألقيت في حفلة تذكارية تمجيداً للشيـخ سلامـة حجازي[4] الذي تسنم قمة المجد في فني الغناء والتمثيل أوائل هذا القرن جاء فيها[5]:

يا ثرى النيل، في نواحيك طير كان دنيا، وكان فرحة جيل

---

(١) توفي عبد الحامولي سنة ١٩٠٢ م وكان نادرة الزمان في حسن الصوت وابتكار الألحان.
(٢) الشوقيات جـ ٣ ص ٧٣
(٣) ديوان حافظ جـ٢ =٨ ٢ ص ٢٤٥.
(٤) أقيم حفل كبير في ديسمبر سنة ١٩٢١ م لنقل جثمان الشيخ سلامة حجازي الى ضريح يتناسب وما قام به من مجهودات في سبيل الفن. وأنشدت فيه قصيدة شوقي.
(٥) الشوقيات جـ٣ ص ١٣٨، ١٣٩.

لم يـزل ينزل الخمـائل حتى — حـلَّ في ربوة عـلى سلسبيل
أقعد الروض في الحيـاة ملياً — وأقـام الربـا بسحر الهـديـل
يا لواء الغنـاء في دولة الفن — اليـك اتجهـت بـالاكليـل
أين من مسمع الزمان أغاني — عـليهـن روعـة التمثيـل؟
أين صوت كأنه رنة البا — بل في الناعم الوريف الـظليل؟
فيـه من نغمة المزامير — معنى وعليه قداسة الترتيل

وقد عرف العصر الحديث حفلات التأبين بصورة منـظمة ودقيقـة، لم يعرفها الشعراء في العصور الماضية، اذ كان الشاعر يحصر نفسه في المناقب الفردية الخاصة بالراحل، أما في عصرنا الحديث فان الشعراء اخذوا يعرضون في رثائهم للمناقب الاجتماعية، وما أسداه الفقيد لمجتمعه من وجـوه البر والاصلاح في مختلف النواحي، فقاسم أمين مثلا حين أبّنه حافظ وشوقي تعرضا لدعوته الى تحرير المرأة على الرغم من أنهما لم يكونا حينئذ على رأيه[١] فحافظ يقول فيه[٢]:

شغلتـك عن دنيـاك أربعـة — والمـرء من دنياه في شغـل
حـق تنـاصـره ومـفـخـرة — تمشي اليهـا غـير منتحـل
وحقـائق للعلم تـنـشـدهـا — مـا للحكيم بهنَّ من قبـل
وفضيلة أعيت سـواك فلم — تمـدد اليـه يـداً ولم يصـل
إن ربت رأياً في الحجاب ولم — تعصم فتلك ابت الـرسـل
الحكم لـلايـام مـرجـعـه — فيـما رأيت فنم ولا تـسـل
وكـذا طهـاة الـرأي تتركـه — للدهـر ينضجـه عـلى مهـل
فـإذا أصبت فأنت خير فتى — وضع الدواء مـواضع العلل

ويقول فيه شوقي[٣]:

إن المضيبة في « الأمين » عظيمة — محمـولـة لمشيئـة الأقـدار

---

(١) ولد قاسم أمين سنة ١٨٦٥ م وتوفى سنة ١٩٠٨ م
(٢) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٦٠.
(٣) الشوقيات جـ ٣ ص ٧٦ ـ ٧٩

في أريحي ماجد مستعظم   رزء الممالك فيه والأمصار
في الرجال لعهده ولرأيه   وأبرّهم بصديقه والجار
وأشدهم صبراً لمعتقداته   وتأدباً لمجادل وممار
يسقي القرائح هادئاً متواضعاً   كالجدول المترقرق المتواري

ثم يقول:

أوددت لو صارت نساء النيل ما   كانت نساء « قضاعة » و« نزار »؟
يجمعن في سلم الحياة وحربها   يأس الرجال وخشية الأبكار
إن الحجاب سماحة ويسارة   لولا وحوش في الرجال ضواري
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه   فتجاوزوه الى أذى وضرار
هاتوا ابن « ساعدة » يؤبن قاسماً   وخذوا المراثي فيه من بشار
من كل لائقة لباذخ قدره   عصماء بين قلائد الأشعار

واذا ما أخذنا نتصفح ديواني حافظ وشوقي أو غيرهما من شعراء العربية في العصر الحديث راعنا انه لم يمت صاحب عمل مجيد في حياتنا الحديثة أو صاحب رأي عقيدة، أو صاحب مثل وغاية نبيلة، الا اجتمع اخوانه على ذكراه وأقاموا له تأبيناً حافلاً، وكان الشعراء أسبقهم في نثر لآلىء دموعهم عليه، وتخليد ذكراه، والتغني بمجده، والتفنن في اظهار محامده، والوقوف على آثاره.

ولعل أهم التلوينات التي أدخلت على المرثية الحديثة ما انصب فيها من النزعات السياسية والوطنية، فقد نزل الاستعمار بالأمم الشرقية، ولم يلبث أن ظهر في كل بلد من بلادنا مجاهدون وزعماء استحقوا تمجيد أوطانهم.

وكلما نعى البرق واحداً منهم هب شعراؤنا يوقعون على قيثاراتهم أشجان المواطنين وأحزانهم، ويظهرون آلامهم وآلام مواطنيهم على رحيل من أملوا فيه خيراً لأوطانهم ولقضاياهم، ويسترسلون في ابراز مواقفه من المستعمر، وما نذر نفسه من أجله في سبيل رفعة الوطن وتقدمه. وأصبح ذلك نهجاً مألوفاً عند كل الشعراء في مصر، خاصة بعد الاحتلال الانجليزي لها سنة ١٨٨٢م.

ومن أبرز الذين وقف الشعراء عليهم وأبنوهم في هذه الحقبة التي نتاولها بالدراسة من الزعماء والسياسيين والقادة، مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول وغيرهم، وسوف نمضي مع الشعراء حسب الترتيب الزمني منذ سنة ١٨٨٢م حتى سنة ١٩٣٦م لنرى ماذا قالوا في رثاء الزعماء في هذه الحقبة، وبأي أسلوب عرضوا آراءهم وجاء ندبهم وبكاؤهم.



الفصل الثالث

رثاء الزعماء والقادة

يشهد التاريخ الصادق أن مصر منذ وقوعها تحت الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢م حتى حصولها على استقلالها التام سنة ١٩٥٤ م لم تهدأ ولم تفتر عن مقاومة المحتلين والوقوف في وجوههم بكل أسلوب وبأي طريقة أسعف بها الزمن أبناءها والقائمين بأمرها. وأن أول حركة وطنية بعد الاحتلال جدّت في سبيل مصر، وتفانت في سبيل الحصول على حقوقها كاملة غير منقوصة كانت حركة مصطفى كامل ذلك الشاب المصري الأصيل الذي خرج من بين صفوف الشباب، وهو ما يزال بعد تلميذاً بالمدرسة الثانوية ليسمع صوت مصر الى العالم كله بعد أن كان صوتها قد خفت أو كاد طوال عهد توفيق، وعقب الصدمة الكبرى بهزيمة عرابي وصحبه الأبرار، لـذلك سرت روح مصطفى كامل في ربوع الوادي وفجاجه، والتف حولها القاصي والداني، وآمن بها كل وطني غيور على حريته وأمنه واستقلاله، وأصبح نداء الشاب اليافع الذي لم يكمل العشرين من عمره تسابيح وتراتيل للشيوخ قبل الشّباب في مصر، وما ان تخرج من مدرسة الحقوق في فرنسا سنة ١٨٥٤م حتى بدأ نجمه يتألق في الشرق والغرب، وشعرت انجلتره بأن روح الحياة بدأت تسري في شرايين مصر التي ظنت أنها أغلقتها الى غير رجعة واستلهم الشعراء وطنيتهم وفنهم وأنغامهم من هذه الزهرة الجميلة التي ظهر برعمها في كل حقل، وعلى كل شاطىء، وعند كل غدير في ربوع مصر. ولم يقف شاعر في وجه مصطفى كامل، ولم ينم جفن أحدهم عن السهر معه وحول أمانيه سواء كان الخديوي عباس معه أو كان وحده. وسواء كان ذلك قبل تأسيس حزبه سنة ١٩٠٧م أو بعده حتى وافته منيته في العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨م.

ولم تنطو صفحته بوضع رفاته في الثرى، وانما ظلت مفتوحة يملؤها

الشعراء بأروع الأنغام وأشجاها في تأبينه، والتذكير به في ذكرى وفاته من كل عام وتشهد دواوين الشعراء في مصر منذ موته حتى سنة ١٩٣٦م أنهم جميعاً كانوا يقدسون فيه روح الحق والايمان بمصر وشعبها، لم يتخلف واحد منهم، أو يختلف على القول فيه.

وما قيل فيه يوم وفاته يدل دلالة قاطعة على أن الشعر كان يعيش ملحمة السياسة بكل أبعادها ومراميها ـ يقول حافظ ابراهيم(١):

أيا قبر هـذا الضيف آمال أمـة	فكبر وهلل والق ضيفك جـاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى	شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا
أيـا قبر لـو أنا فقـدنـاه وحـده	لكان التأسّي من جوى الحزن شافيا
ولكن فقـدنا كـل شيء بفقـده	وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا

ثم يقول:

عهدناك لاتبكي وتنكر أن يُرى	أخو اليأس في بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غد	تـرانا كـما تهوى جبـالاً رواسيـا
فيـا نيل إن لم تجر بعد وفـاته	دما أحمرا لاكنت يا نيل جـاريا
ويا « مصر » إن لم تحفظي ذكر عهده	الى الحشر لازال انحلالك باقيا
ويا أهل « مصر » إن جهلتم مصابكم	ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا
ثـلاثون عـاماً بـل ثلاثـون درة	بجيـد الليالي سـاطعات زواهيـا
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن	فتى مفرداً بل كنت جيشاً مغازيا

وفي ذكرى الأربعين عاد حافظ ينثر أشعاره على قبر مصطفى كامل كما نثر المصريون الزهور على رفاته، وأطـال في قصيدتـه يحكي أحوال مصـر السياسية، وأحزانها وآلامها الشعبية يقول(٢):

نثـروا عليك نـوادي الأزهار	وأتيت أنـثر بينهم أشعـاري
زين الشباب وزين طلاّب العلا	هل أنت بالمهج الحزينة داري

---

(١) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٦.

(٢) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٦.

غادرتنا والحادثات بمرصد | والعيش عيش مذلة وإسار
قم وامح ما خطت يمين «كرومر» | جهلاً بدين الواحد القهار
قد كنت تغضب للكنانة كلما | همت وهم رجاؤها بعثار
جزع الهلال عليك يوم تركته | ما بين حر أسى وحر أوار
متلفتاً متحيراً متخيراً | رجلاً يناضل عنه يوم مخار
إن الثلاثين التي بك فاخرت | باتت تقاسي بأطول الأعمار
ضمت الى التلويح بضع صحائف | بيضاء[1] مثل صحائف الأبرار

وقال فيه اسماعيل صبري بيتاً واحداً على قبره ثم خنقته العبرات فلم يستطع اكمال قوله[2]:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعياً | هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

ولكنه بعد أن هدأت النفوس أطال فيه القول في حفل تأبينه يوم الأربعين، وجاءت كلماته بلوعتها وروعتها كلمات شيخ حنكته التجارب وصقله الزمن، فانها مع هدوئها، وقلة الدموع في نسجها.. تشهد بعظمة الفقيد وايمان الشاعر به، وعظم الخسارة فيه قال[3]:

أيا «مصطفى» تالله نومك رابنا | أمثلك يرضى أن ينام اللياليا؟
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا | وقل يا خطيب الحي رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت هجرة | تخالك أعواد المنابر غازيا
وتبكيك، لولا أنّ فيها بقية | تعللها من ذلك الصوت داويا[4]
طواك الردى طيّ الكتاب تضمنت | صحائفه من كل فخر معانيا

---

(١) بيضاء: خطأ وقع فيه الشاعر، والصواب «بيضا» وكان في مكنته أن يقول بيضا» كمثل ويصبح الوزن، ومع الأسف لم يدرك المحققون هذا الخطأ وتركوه.

(٢) ديوان اسماعيل صبري ص ٧ ـ ٢١

(٣) ديوان اسماعيل صبري ص ٢١٣ ـ ٢١٦

(٤) عبارة «داويا» بمعنى «مدو» خطأ شاع بين الشعراء والكتاب في العصر الحديث، واللغة ترفضه.

فليتك إذ أعجبت كل مساجل ... قنعت فلم نعي الطبيب المداويا
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض ... مع الجد قلباً ـ يعلم الله غالبا
يحييك سيفايات في الترب مغمدا ... تقلده ـ فيما مضى ـ الحق ماضيا

ومن أروع ما دبَّجته يراعة شوقي في الرثاء الوطني رثاؤه لمصطفى كامل وفيه يقول[1]:

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني
يا خادم الاسلام أجر مجاهدٍ ... في الله من خلدٍ ومن رضوان
لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى ... في الزائرين وروع الحَرَمان
الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد، والأقدام، والعرفان
إن كان للأخلاق ركن قائم ... في هذه الدنيا فأنت الباني
ياطاهر الغدوات والروحات والـ ... ـنحطرات والأسرار، والاعلان
هل قام قبلك في المدائن فاتح ... غاز بغير مهند وبنان؟
يدعو الى العلم الشريف، وعنده ... أنّ العلوم دعائم العمران!
لفوك في علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... اذ ينصتون لخطبة وبيان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها ... قبر أبّر على عظامك حاني
أقسمت أنك في التراب طهارة ... ملك يهاب سؤاله الملكان

وجاءت كلمات أحمد نسيم شاعر الحزب الوطني تصور فجيعة الأمة المصرية في زعيمها الراحل، وهي أحوج ما تكون اليه، ومرثيته كلها تدور حول جهاده، وما غرس في وطنه من حراب لمقاومة المستعمر، بما كان يكتب في صحيفة « اللواء » وبما كان يقوم به من رحلات في جميع أنحاء العالم يشرح فيها قضية بلاده، ويخطب ضد كرومر والانجليز، وبمواقفه الوطنية التي ألهبت مشاعر المصريين، وأحيت فيهم روح الأمل، وسعرت نيران الصراع فيهم ضد المستعمرين الغاشمين، وجعلت منهم قوة متماسكة يخشاها المحتل المتغطرس

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ١٥٧ ـ ١٦٠

مع عنفه وجبروته. وقد جفت دموع عينيه فلم تعد قادرة على البكاء ولكن[1]:

لا أيد الله أعداء أذلّهم ... حتى أقاموا بدار الذل والعار
إن يشتموا فكؤوس الموت دائرة ... يأتي على الناس ساقيها بأدوار
يا بائع الصبر إن الناس في جزع ... فبع لهم كل مثقال بدينار
لاكان يوم دفنا عنْد تعزية ... بدر السنا خبا من بعد أسفار

وبعد تصويره لعجز الأطباء في مرضه، وتسليمهم بأفول نجمه قال:

نعم براه رقي الصعب يوم جرى ... يسابق الشمس في بيد وأمصار
فلم يجد منبراً الاّ أسرَّ له ... ما بالجوانح من شجو وأسرار
ولم يجد معركاً الاّ أناف به ... والموت ما بين اقبال وادبار
وكم تهاون بالأيسام تدفعه ... الى مواقف أهوال وأخطار
وكم أهاب وكف الدهر صائلةٌ ... على العباد بعزم غير خوار
فما تراجع حتى فلَّ بقوله ... حسام كل عنيد الرأي جبار
خذ عنه رأي بني « التاميز قاطبةً ... محافظين » ذوي حقد واصرار
وسل « جراي » يخبر انه قلم ... قد كاد يصرعه في كل انذار

وفي قصيدة أخرى نراه يزداد ألما ولوعة، ويصور حزن الأمة على أملها الذي طواه الثرى فيقول[2]:

أملٌ نأى عن أرض مصر وزالا ... أصمى القلوب، وقطّع الأوصالا
يا نائياً عنا وكنت محسَّداً ... فينا كما كنت الشريف مقالا
مدت اليك يد المنون ـ فأنشبت ... بقلوبنا ـ قضباً لها ونصالا
وضعوك في نعش يضيق بماجد ... ما ضاق ذرعاً في العلا ومجالا
جشمت نفسك همة تبغي بها ... ارضاء قومك لا عُلاً أو مالا

---

(١) انظر ديوان أحمد نسيم جـ ١ ص ٢٣ ـ ٢٦
(٢) انظر ديوان أحمد نسيم جـ ١ ص ١٢٥

خففت عن مصر الهموم وانما … حملتها بفراقك الأثقالا
أعز علينا أن نواريك الثرى … ونجر بعدك للنهى أذيالا
... يا أخطب الشرقين قم بين الملا … واخطب عليهم إن صمتك طالا
... أحييت آمال العباد ولم تعش … حتى تحقق هذه الآمالا
قد أطرقوا رهبا حيالك وانثنوا … جزعاً وساؤوا بعد موتك حالا
إنّا سنبقي ذكر فضلك خالداً … لنكون في صدق الولاء مثالا
قد كنت أفضل من يذود لسانه … عنا وأصدق من يقول مقالا

وكان رثاء أحمد الكاشف له لايقل حرارة وألماً عمن سبقوه من الشعراء، فأحمد الكاشف ممن امتلأت نفوسهم بدعوته، ونذروا أشعارهم وأفكارهم للتبشير بها والدفاع عنها.

ولقد تقابل الرجلان عند الايمان ببقاء دولة الخلافة مرفوعة الأعلام متماسكة الأركان، مع الحرص على استقلال مصر وحريتها، وطرد المستعمر من أرضها الطاهرة، وعرف عن الكاشف أنه شاعر الاسلام والوطنية، كما عرف عن مصطفى كامل أنه رائدها والمدافع عنها.

لذلك جاء رثاء الشاعر لزعيمه درساً وطنياً وخلقياً، صوّر فيه مدى خسارة الأمة فقال[1]:

يا كوكباً في كل برج دارا … أرضيت في هذا الضريح قرارا؟
ومجاهداً في كل واد ضارباً … لولا المنية ما لقيت عثارا
قد كنت تعدو في السماء وفي النهى … وغدا الثرى لك غايةً وقصارى
تسعى وحولك عصبة نبهتها … فتبينت مرماك والأوطارا
... وحملت عبء القوم وحدك عنهم … لاشاكياً نصباً ولا خوارا
أرهقت نفسك واستراحوا بعدما … وكلوا اليك الدار والديار
... عودتهم رفع الرؤوس تطلعاً … فاستجمعوا الأسماع والأبصارا
ومددت أسباب الرجاء طويلة … وقضيت أيام الحياة قصارا

---

(١) ديوان أحمد الكاشف جـ ٢ ص ١١٦ - ١٢١

لم تعرف الدنيـا نبياً مرسلا   في ذا الشباب ولا رأت أبرارا
كانت خلالك مثل وجهك جنة   ملء النفوس وكان قلبك ناراً

ثم يقول:

في أي يوم - غير يومك - هائل   يبكي المسيء لذنبه استغفارا
ما كنت ذا عرش وتاج لامع   أو فـارسـاً تتقلد التستـارا
ما كنت الا صائحاً في أمة   تستصرخ الشجعان والأحرار
. . . يا قائد الأبطال هذا جيشك الـ   بحرار فانظر جيشك الجرارا
أعـلامهم منكـوسـة فكـأنها   أسراب طير ضلت الأوكـارا
فلئن بكوك فقد بكيتهم وهم   غرباء في أوطانهم وأسارى
. . . لولاك لم تبد الحوادث مخلصاً   لـبـلاده مـنـا ولا غـدارا
ساروا وسرت فكنت أوضح منهجاً   فينـا وأشـرف رتبـة وشعـارا
وتـرددوا حيناً وحينـاً حافتـوا   ومضيت تدعـو بالجلاء جهارا

ونلمس منه ما يدل على مبادئه واتجاهاته في قوله:

صعب علينا والخطوب ملمة   لولا الخلاقة أن نصون ذمارا
لو لم تسل قطع النفوس لشيدوا   منهـا لك التمثـال والتذكـارا
ما مات من ورثت مناه أمة   تجري على منهاجه استمرارا

واستمر الشعراء يوقعون على قيثاراتهم أشجان الوطنيين وأحزانهم ويندبون آمال الوطن وينبشون آلامه وهم يبكون رحيل مصطفى كامل، فقال علي الغاياتي:[١]

يـا فقيد الشـرق ضلـت أمة   كنت تهديها الصراط الأقومـا
يا خطيـاً خطبـه هد القـوى   بعدمـا كـانت بنـاء محكـما
فلتنـح مصـر وأهلوهـا عـلى   ذلك المجد الذي قد هـدما
أيها الموت اتئـد نحو الصّبـا   وإذا شئت فـواف الهـرمـا

---

(١) وطنيتي ص ٤٨ - ٥٠

انني أرثيـك يـا خـير فتى عبس الشـرق لـه وابتـسما

وتوالت الأيام والأحداث على مصر، ولكن ذكرى مصطفى كامل ظلت في مخيلة الشعراء تلهب مشاعرهم، وتثير فيهم نوازع الوفاء للفقيد، وتجدد الآمال على طريقته وبأسلوبه، فأخذوا يقيمون مهرجانات الشعر لتأبينه، وتعداد ـ محامده، واستعادة قصة كفاحه كل عام، وينتهزون هذه المناسبة ليطلقوا لأنفسهم العنان في الحديث عن قضايا الوطن، ومشاكله السياسية والاجتماعية.

ومن أبرز ما قيل في ذكراه عبر ربع قرن تقريباً قول أحمد نسيم في ذكراه الأولى(١):

لبيك يا من كنت مـارب أمةٍ لـولاك ما كـانت تعز وتكـرم
لبيك يـا طـودا تهـدم ركنـه فـأريتنـا كيف الجبـال تهـدم
لبيك يـا بـدراً تقلص نـوره ولكم أضاء به الـطريق المبهم
انظر الينا من سمـائك نـظرة تهدي الورى فالشك داجٍ مظلم

ويشير الى العداوات التي ظهرت بعد موت مصطفى كامل، واستشرت في جوانب كثيرة من الوطن، خاصة بين الصحفيين ورجال السياسة والأحزاب، وأرباب المال والجاه والسلطان... فيقول:

همت الى العدوان بعدك عصبة خانوا مواثيق البلاد وأجرموا
حلفوا برب البيت الا يصدقوا وعلى الخيانة والغواية أقسموا
واستأسدوا وهم الذئاب مهانة لما ثوى تحت التراب الضيغم
وأشدهم كيداً وأمرسهـم أذى ذاك الذي تاقت اليه جهنم(٢)

---

(١) ديوان أحمد نسيم جـ٢ ص ١٠ ـ ١٣ وانظر صحيفة اللواء عدد٢٨٧٧ في ٢٠ من محرم سنة ١٣٢٧ هـ، ١١ من فبراير سنة ١٩٠٩ م ميلادية.
(٢) يشير الى الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وما كان يقوم به من حملات ضد الحزب الوطني.

ثم اتجه الى مخاطبة الشعب فقال:

قومي ولا أدعو سواكم معشراً　　أخشى عليهم أن يقال استسلموا
قومي لقد حان التيقظ فانشدوا　　مجداً لكم ضيعتموه وغمتم
من باتَ ينشد حقه متوخياً　　فيه الثبات فإنه لايهضم

وانطلق حافظ في قصيدة طويلة مؤبنة أيضاً في ذكراه الأولى سنة ١٩٠٩م، مصوراً حزنه وحزن الشعب كله على فقده، ومتناولا أحوال الوطن وأبنائه داعياً الى التمسك بمبادىء الفقيد، والسير على هداه فقال[1]:

غضوا العيون وحيوه تحيته　　من القلوب اذا لم تسعف الكلم
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه　　فنحن في موقف يحلو به القسم
لبيك نحن الألى حركت انفسهم　　لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا　　ونستعد ونستعدي ونحتكم
قيل اسكتوا فسكتنا ثم انطقنا　　عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
قد اتهمنا ولما نطّلب جللاً　　إن الضعيف على الحالين متهم
قد مرّ عام بنا والأمر يحزبنا　　آناً وآونة تنتابنا النعم
فالناس في شدة والدهر في طلب　　والعيش قد حار فيه الحاذق الفهم
وللسياسة فينا كل آونة　　لونٌ جديد وعهد ليس يحترم

وبعد أن صور الشاعر خدع السياسة وألاعيب المستعمر فيها، واستهانته بحقوق الوطن، وبين أن ذلك لن يفت في عضد الشعب المصري ـ ذلك الشعب العريق الذي له من الأمجاد التاريخية مالا يمكن محوه مهما ضلل المضللون، وتفنن المحتلون، والذي تصونه رعاية الله من كل ساحقة لأن لله فيه غاية، ولدينه على أرضه وقاية وحماية.. انتقل الى مخاطبة الشباب ودعوتهم الى السير على طريق مصطفى كامل حتى تتحقق للبلاد غايتها فقال:

يا أيها النشء سيروا على طريقته　　وثابروا، رضي الأعداء أو نقموا

---

(١) ديوان حافظ جـ٢ ص ١٦٠ ـ ١٦٣.

فكلكم مصطفى لو سار سيرته وكلكم كامل لو جازه السأم
قد كان لا وانياً يوماً ولا وكلاً يستقبل الخطب بساماً ويقتحم

ثم عاد الى مخاطبه الفقيد فقال:

نم أنت، يكفيك ما عانيت من تعب فنحن في يقظةٍ والشمل ملتئم
هذا «لواؤك» خفاقٌ يظللنا وذاك شخصك في الأكباد مرتسم

وهكذا تحول تأبين الموتى والقادة منهم بالذات في مصر الحديث الى مناسبات يعرض فيها الشعراء آراءهم حول السياسة، ومواقف الأحياء منها بعد رحيل هذا أو ذاك من الزعماء والقادة، وأصبحوا يلونون قصائدهم بألوان من النقد والتحليل لمجريات الأحداث ويربطون ذلك بمواقف من يؤبنونه ويستعيدون ذكراه، وبدلوا الدموع والآهات بالتوجيهات والأفكار التي يبغون نشرها وسيادتها بين الناس والشباب منهم خاصة.

ولعل أصدق مثال على ذلك تأبين شوقي لمصطفى كامل سنة ١٩٢٤م وذلك التأبين الذي صور فيه الشاعر انتكاسة «ثورة سنة ١٩١٩م» والخلاف الذي نشب بين زعمائها، وبينهم وبين الأحزاب حتى أصبح الشعب شيعاً وأحزاباً، واستطاع المستعمر أن يملي إرادته وسط هذي المتاهات من الخلافات والأغراض الشخصية وأن يجعل تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢م هو الأمل الذي ثارت الأمة من أجله وأريقت دماء بنيها، وذلك حيث يقول تحت عنوان «شهيد الحق[1]»:

إلام الخلف بينكم؟ إلاما؟ وهذي الضجة الكبرى علاما؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حال، ولا السودان داما
وأين ذهبتم بالحق لما ركبتم في قضيته الظلاما؟
لقد صارت لكم حكماً وغُنْماً وكان شعارها الموت الزؤاما
وثقتم واتهمتم في الليالي فلا ثقة أومن، ولا اتهاما

(١) الشوقيات جـ١ ص ٢٢١ - ٢٢٤

شببتم بينكم في القطر ناراً عـلى محتله كـانت سـلاما

ثم يقول:

ولينا الأمر حزباً بعـد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما
جعلنـا الحكم تـولية وعـزلا ولم نعـد الجـزاء والانتقـامـا
وسسنا الأمر حين خلا الينـا بـأهواء النفـوس فما استقـاما
إذا التصريح[1] كان براح كفر فلم جنّ الرجال به غرامـا؟
وكيف يكون في أيدٍ حـلالاً وفي أخرى من الأيدي حراما؟

ثم اتجه بالخطاب الى مصطفى كامل، وأخذ يشيد به، ويعدد مـزاياه وفضائله ويعيد الى الأذهان لحظات توديع الشعب له، ذلك الوداع الذي رحل معه أمل كبير وطويت به أحلام عظام فقال:

شهيـد الحق، قمّ تـره يتيـماً بأرض ضيعت فيها اليتـامى
أقـام على الشفـاه بها غـريباً ومـرّ على القلوب فـما أقامـا
سقمت، فلم تبت نفـس بخير كـأن بمهجة الـوطن السقامـا
ولم أر مثل نعشك إذ تهادى فغطى الأرض، وانتظم الأناما
تحمـل همـة، وأقـلّ دينـا وضم مروءة، وحوى زمـاما
ومـا أنسـاك في العشـرين لما طلعت حيالهـا قمـراً تمـامـا
يشار اليك في النادي وترمى بعيني من أحبّ ومن تعامى
إذا جئت المنابر كنت « قساً » إذا هو في « عكاظ » علا السـناما
وأنت ألـذ للحـق اهتـزازاً وألطف حين تـنطقه ابتسـاما
وتحمل من أديم الحق وجهاً صراحاً، ليـس يتخذ اللثامـا
لك الخطب التي عض الأعادي بسـورتها، وسـاغت للندامى
فكـانت في مـرارتهـا زئيـراً وكـانت في حـلاوتهـا بغـامـا
بك الوطنية اعتدلت، وكانت حديثاً من « خرافة » أو مناما
بنيت قضيـة الأوطـان منهـا وصيـرت الجلاء لهـا دعـامـا

(١) يشير الى تصريح الاستقلال المزيف في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢م .

هززت بني الزمان بها صبياً ورعت به بني الدنيا غلاما

وحين تم ائتلاف الأحزاب، واتفق الزعماء على بعض الأمور السياسية، وجرت الانتخابات بين المؤتلفين، وعاد سعد زغلول الى الحكم، والتف الشعب حوله مرة أخرى، انتهز شوقي تلك الفرصة ليعبر عما في نفسه في تأبين مصطفى كامل في فبراير من سنة ١٩٢٦م وقد رأيناه يشدو بأنغام تختلف عن شدوه الذي أشرنا اليه في سنة ١٩٢٤م فهو هنا يلبس أقواله الحكم ويلونها بالعبر والأمثال لينطلق من خلالها الى تأبين الراحل والتحدث عن مجوده، وأثر ذلك في اجتماع الأمة وائتلاف احزابها فيقول[١]:

لم يمت من له أثر وحياة من السير
أدعه غائباً وإن بعدت غاية السفر
آيب الفضل كلما آبت الشمس والقمر
رب نور متمم قد أتانا من الحفر
انما الميت من مشى ميت الخُبْر والخَبَر
من إذا عاش لم يفد واذا مات لم يضر
ليس في الجاه والغنى منه ظل ولا ثمر
قبح العز في القصور إذا ذلت القصر[٢]

ثم يقول:

أيها القوم، عظِّموا واضع الأس والحجر
اذكروا الخطبة التي هي من آية الكبر
لم ير الناس قبلها منبراً تحت محتضر
لست أنسى لواءه وهو يمشي الى الظفر
حشر الناس تحته زمراً إثرها زمر

ويشير الى الأوضاع السياسية فيقول:

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٩١ ـ ٩٣
(٢) القصر: جمع قصرة، وهي العنق.

قم تر القوم كتلة   مثل ململومة الصخر
جددوا ألفة الهوى   والاخاء الذي شُطِر
ليس للخلف بينهم   أو لأسبابه أثر
ألْفتهم روائح   غاديات من الغير
وصحوا من منوم   وأفاقوا من الخدر
أقبلوا نحو حقهم   مالهم غيره وطر
جعلوه خلية   شرعوا دونها الإبر

وتواصوا بخطة   وتداعوا لمؤتمر
وقصارى أولى النهى   يتلاقون في الفكر
قل لهم في نديّهم   مصر بالباب تنتظر

كان هذا موقف الشعراء عبر حقبة الصراع الكبرى مع المستعمرين منذ الاحتلال حتى سنة ١٩٣٦م، وكان اهتمامهم بالزعماء المبرزين واضحاً في مراثيهم، وفي تأبينهم، ولكنهم بجانب ذلك رثوا الوزراء والسياسيين ومن وقفوا حياتهم على أمر من أمور الدولة، وكانوا في تناولهم لهؤلاء الرجال لايغالون، ولا ينقصون وانما ينصب اهتمامهم بالدرجة الأولى على الأثر الذي تركوه لأمتهم، والذي يمكن أن يكون مثلاً يحتذى سواء كان لهم أو عليهم.

وأمثلة ذلك كثيرة في دواوين الشعر في هذه البرهة، وأنا أسوق منها قول شوقي في بطرس غالي رئيس الوزراء الذي قتل بسبب شروعه في مد امتياز قناة السويس سنة ١٩١٠م وبسبب أمور اخرى سياسية، والذي كاد مقتله يؤدي إلى حدوث فتنة بين الأقباط والمسلمين لولا بصيرة زعماء الطرفين، وصدق الارادة لدى المخلصين من قادة المسلمين والمسيحيين، وسيطرة مشاعر الأخوة التي تربط بينهما منذ أقدم العصور. وكانت انطلاقة شوقي في رثائه انطلاقة رجل واع مقدر للأمور.. متفهم لأبعاد السياسة والتاريخ، ولذلك رأيناه لايبدي فيه رأياً، وانما يواسي أهله، ويترك الحكم له أو عليه للتاريخ الذي لايساوي بين الحق والباطل مهما حاول المغرضون والمضللون قال[1]:

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ١٤٤، ١٤٥.

ماذا لقيت من الرياسات العـلا وأخذت من نعم الحياة حسابا؟
اليـوم يغني عنك لـوعـة بـائس وعــزاء أرملة، وحـزن يتـامى
والرأي للتاريخ فيك، ففي غد يزن الرجال، وينطق الأحكـاما
يقضي عليهم في البرية، أولهم ويـديم حـمداً، أو يؤيـد ذاما

ويشير الى انصهار المسلمين والمسيحيين في مصر منذ شروق الديـانتين العظيمتين فيقول:

أعـهـدتـنـا والقبطَ الآ امـة لـلأرض واحدة تـروم مـراما؟
نعـلي تعـاليم المسيـح لأجلهم ويوقّـرون لأجلنـا الاسـلامـا
الـدين للديّان جـل جـلالـه لـو شاء ربـك وحـد الأقـواما
يا قوم بان الرشد أقضوا بأجري وخذوا الحقيقة، وانبذوا الأوهاما
هـذي ربوعكم، وتلك ربـوعنا مـتقـابلين نعـالـج الأيـامـا
هـذي قبـوركم وتلك قبــورنـا متجـاورين جماجمـا وعـظامـا
فَبِحُرمةِ الموتى، وواجب حقهم عيشوا كما يقضي الجوار كرامـا

وأما اسماعيل «باشا» صبري فقد كان صديقاً لبطرس غالي، ولذلك جاء رثاؤه له رثاء صديق وفي يبكي موت صديقه بعيداً عن مواقف السياسة ومجريات الأمور فيها وذلك حيث قال:[1]

يـا نـازلا بـين وفـود البـلى آنستهم يـا مـوحش الأربـع
عيني فيـك اليـوم قبـطيـة تروي الأسى عن مسلم موجع
يهيم من وجـد ومن لـوعـة في الجانب الأيسر من أضلعي
ويـأخـذ البـر وآي الـوفـا عن الكتـاب الطيب المشـرع
يـا من سقاني الجم من وده هـذا ودادي كله فـاكـرع
يا حامل القلب الكبير الذي لم ينقِض الميثاقَ قم واسمع

---

(١) ديوان اسماعيل صبري ص ٢١٨، ٢١٩. ومن المعروف أن الشاعر اسماعيل صبري كان له دور كبير بسبب هذه الصداقة في انهاء الفتن بين الأقباط والمسلمين.

وكان مصطفى رياض باشا من السياسيين المبرزين في مصر قبل الاحتلال وبعده، وكانت له مواقف مشرفة في كثير من القضايا الوطنية، ويرجع اليه الفضل في تنظيم وزارة الداخلية المصرية، وقد تولى رياسة الحكومة ثلاث مرات، فلما مات رثاه حافظ بما يليق بمواقفه الوطنية وما قدمه لمصر من خدمات.. قال من قصيدة طويلة(١):

« رياض » أفق من غمرة الموت واستمع — حديث الورى عن طيب ما كنت تصنع
أفق واستمع مني رثاءً جمعته — تشاركني فيه البرية أجمع
لتعلم ما تطوي الصدور من الأسى — وتنظر مقروح الحشا كيف يجزع
لئن تك قد عمرت دهراً لقد بكى — عليك مع الباكي خلائق أربع
مضاء، وأقدام، وحزم، وعزمة — من الصارم المصقول أمضى وأقطع
وقد كنت ذا بطن ولكن تحته — نزاهة نفس في سبيلك تشفع
وقفت « لاسماعيل » والأمر أمره — وفي كفه سيف من البطش يلمع(٢)
إذا صاح لبّاه القضاء وأسرعت — الى بابه الأيام، والناس خشع
وكم نابغ في أرض « مصر » حميته — ومثلك من يحمي الكريم ويمنع
رعيت « جمال الدين » ثم اصطفيته — فأصبح في أفياء جاهك يرتع
ووليت تحرير الوقائع « عبده » — فجاء بما يشفي الغليل وينفع(٣)
وكانت لرب الناس فيه مشيئة — فأمست اليه الناس في الحق، ترجع
رفعت عن الفلاح عبء ضريبة — ينوء بها أيام لا غوث ينفع
وأرهبت حكام الأقاليم فازعوا — وكانوا أناساً في الجهالة أوضعوا
فخافوك حتى لو تناجوا بنجوة — لخالوا « رياضاً » فوقهم يتسمع
أقمت عليهم زاجراً من نفوسهم — إذا سولت أمراً لهم قام يردع

---

(١) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٦٧ - ١٧٢ - توفي رياض باشا بالاسكندرية في ١٧ من يونية سنة ١٩١١ م.

(٢) يشير الى معارضته للخديوي اسماعيل عندما أراد نفي (اسماعيل باشا صدقي) وطلب محاكمته علنا

(٣) «عبده» المراد الشيخ محمد عبده ورئاسته لتحرير الوقائع المصرية.

وفيه أيضاً قال شوقي مرثية من أطول مراثيه وقد ملأها بالحكم والعظات ومنها قوله[1]:

مماتٌ في المواكب، أم حياة ... ونعش في المناكب، أم عظات؟
ويومك في البرية، أم قيام ... وموكبك الأدلة والثبات؟
وخطبك يا «رياض» أم الدواهي ... على أنواعها والنازلات؟
يجل الخطب في رجل جليل ... وتكبر في الكبير النائبات؟
وليس الميت تبكيه بلاد ... كمن تبكي عليه النائحات
أبا الوطن الأسيف بكتك مصر ... كما بكت الأب الكهف البنات
قضيت لها الحقوق فتى وكهلا ... ويوم كبرت وانحنت القناة
رهين الرمس حدثني مليا ... حديث الموت تبد لي العظات
هو الخبر اليقين، وما سواه ... أحاديث المنى والترهات
سألتك ما المنية؟ أي كأس؟ ... وكيف مذاقها، ومن السقاة؟
وماذا يوجس الانسان منها ... إذا غصت بعلقمها اللهاة؟
وأي المصرعين أشد: موتٍ ... على علم، أم الموت الفوات؟
وهل تقع النفوس على أمانٍ ... كما وقعت على الحرم القطاة؟
أليس الحق أن العيش فان ... وأنّ الحي غايته الممات؟
فنم ما شئت لا توحشك دنيا ... ولا يحزنك من عيش فوات

وتبلغ القصيدة خمسة وتسعين بيتاً معظمها يدور حول الموت وأسراره، وقليل من أبياتها فيه حديث عن الميت وأعماله وجهاده ومواقفه، وهي تدل على تأثير شوقي بالمتنبي وأبي العلاء ومحاولة السير على طريقها.

وكان الشيخ علي يوسف صاحب صحيفة «المؤيد» من كبار السياسيين في عصره، ومع أن مبادئه السياسية كانت لاتصادف هوى عند حافظ ابراهيم... رثاه بما يليق بعلمه وكفاحه، ومما قال فيه:[2]

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٤٢ - ٤٨.

(٢) ديوان حافظ جـ٢ ص ١٨٧

أودى فتى الشرق ، بل شيخ الصحافة ، بل شيخ الوقائية الوضاحة النسب
أقام فينا عصاميا فعلّمنا معنى الثبات ومعنى الجد والدأب
وراح عنا ولم تبلغ عزائمنا مدى مناها ولم تقرب من الأدب
قالوا عجبنا لمصر يوم مصرعه وقد عجبت لهم من ذلك العجب
إن الألى حسبوها غير جازعة لا ينظرون الى الأشياء من كثب
تا لله ما جهلت فيه مصيبتها ولا الذي فقدت من كاتب العرب

وحين قامت الحرب العالمية الأولى عزل الانجليز الخديوي « عباساً » ووضعوا مكانه السلطان « حسين كامل » وكانت صحته معتلة، فلم يمض في الحكم غير ثلاث سنوات وبضعة أشهر، ثم وافته منيته والحرب مستعرة، ومصر في دوامتها تقاسي آلامها، وتعاني مرارتها ـ من حيث لا ناقة لها فيها ولا جمل ـ وكان قبل توليه رياسة الدولة يعمل على تنشيط حركة التعليم، واقامة مؤسسات « ديمقراطية » لها حرية التعبير وابداء الرأي في شؤون الأمة، وحين تولى رياسة مجلس الشورى سنة ١٩١٠م ثبت على مبادئه ولم يتراجع عن كفالة الحرية للجميع، لذلك قدر فيه الشعراء هذه المواقف وأبرزوها في رثائهم له.

ومما قاله فيه اسماعيل صبري[١] ـ :

من يغيث المظلوم إن بات يشكو « وحسين » عدت عليه العوادي؟
حبذا طيف نهضة قد أرانا ه عياناً لم يتفق في رقاد
فكأنا من « عابدين » خروجاً نتهادى منها على ميعاد
لم يـر الموت رأيه وتقضى حلم قد سرى بأقصى البلاد

ومما قاله حافظ ابراهيم فيه[٢]:

حجب الموت مطلع الجود يا مصر فجودي له بدمع سخي
كم تمنى لو عاش حتى يرانا أمة ذات منعة ورقي

(١) ديوان اسماعيل صبري ص ٢٢٦، ٢٢٧ ـ توفي السلطان حسين في اكتوبر سنة ١٩١٧ م

(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

غـالــه الضعف حــين شمــر   لـلاصلاح في ملكـه بعـزم فتي
حبس الخطب فيك ألسنة القو   ل وأعيـا قـريحـة العبقـري
وإذا جـلّت الخــطوب وطمّـت   أعجزت في القريض طوق الروي

واذا كـان الشعراء ـ عبـر رحلة الحيـاة ـ تناوبتهم المحن والآلام بفقـد الأصدقاء والزملاء، وسجلوا ذلك في أشعارهم ندباً وبكاء مرة، ومـوعظة ومواساة أخرى فإنهم كانوا أصدق احساساً وأرهف مشاعراً حين فقدوا الزعماء الوطنيين ومن هنا أسعفهم شيطان الشعر في رثائهم فاستدروا. الدمع من مآقي الألاف بل الملايين من أتباع هذا الزعيم أو ذاك.

ولقد كان حب الشعراء في مطلع القرن العشرين لمصطفى كامل ثم من بعده لمحمد فريد حباً لايتصل برجل أو بغاية، وانما هو حب لمصر وعشق لها. . يسري في أجسادهم مسرى الدم في شرايينه، ولذلك كان بكاؤهـم حاراً على مصطفى كامل، فلما عصف الموت بخليفته محمـد فريـد ندبـوه ندب مقروحي الفؤاد، وبكوه بكاء محزونة القلب على أعز الأبناء وأكثروا القول فيه عزاء لهم وللمكلومين عليه من أبناء الأمة التي كانت في غمرة الثورة والجهاد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى للحصول على حريتها واستقلالها وهي أحوج ما تكون الى المخلصين من أبنائها والى الذين وقفوا حياتهم على الكفـاح في سبيلها، ولا شك أن محمد فريد كان ذلك الرجل. وهو بين أحضان وطنه، وبعد منفاه في مارس سنة ١٩١٢ حتى آخر نفس فيه في ١٥ من فبراير سنة ١٩١٩م.

ولقد أكبر الشعراء فيه تلك الملحمة الانسانية من التضحية والجهـاد، فتكاثروا على قبره يندبونه وينوحون عليه، وتلون بكاؤهم بألوان سود قاتمة لأن بكاءهم في الحقيقة كان عليه وعلى الشهداء الذين سقطوا في ثورة ١٩١٩م وعلى الوطن الغالي المكبل بالحديد والنار وعلى الحريـة المكتومـة أنفاسهـا، والرجال الممزق شملهم. ولهذا جاء رثاؤهم له مصوراً لذلك كله.

وها هو ذا حافظ يخط قصيدته بدمعه ويقول:(١)

---

(١) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠

من ليومٍ نحن فيه من لغدٍ؟ مات ذو العزمة والرأي الأسد
حلّ بالجمعة حزن وأسى ومشى الوجد الى يوم (الأحد)
وبدا شعري على قرطاسه لوعة سالت على دمع جمد
أيها النيل لقد جلّ الأسى كن مداداً لي إذا الدمع نفد
واذبلي يا زهرة الروض ولا تبسمي للطل فالعيش نكد
والزم النوح أيا طير ولا تبتهج بالشدو فالشدو حدد
فلقد ولى « فريد » وانطوى ركن « مصر » وفناها والسند
خالد الآثار لاتخش البلى ليس يبلى من له ذكر خلد

ثم يقول في أواخر القصيدة:

فقدت (مصر فريداً) وهي في لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيراً حوّلاً وهي والأيام في أخذ ورد
ويح « مصر » بل فويحاً للثرى إنه أبلغ حزناً وأشد

وكان رثاء حافظ له عقب موته مباشرة، وقبل أن يتطوع الحاج خليل عفيفي التاجر بالزقازيق بنقل رفاته من « برلين » التي توفي ودفن بها على حسابه الخاص الى أرض الوطن، وذلك في الثامن من يونيو سنة ١٩٢٠م لذلك نراه يجعل ثري مصر يبكي كما بكاه أهلها فيقول:

كم تمنى وتمنى أهله لو يوارى فيه ذياك الجسد
لهف نفسي هل « ببرلين » امرؤ فوق ذاك القبر صلى وسجد؟
هل بكت عين فروت تربه هل على أحجاره خطٌّ أحد؟
ها هنا قبر شهيد في هوى أمة أيقظها ثم رقد!

وكان شوقي حين أحضر رفات « محمد فريد » من ألمانية قد عاد من منفاه في اسبانية منذ شهور قليلة، وشوقه لوطنه والى أصدقائه منه ومن بينهم محمد فريد كبير، لذلك كانت فجيعته فيه مؤلمة وقاسية، فجاء رثاؤه له الذي تلي على قبره بعد تشييعه في مصر مليئاً بالبكاء على غير عادة شوقي مجللاً بالسواد، والمرارة، واليأس على خلاف طبيعته. وان كان قد استهله بالحديث

عن الحياة والموت، وأكثر فيه من الحكم والعظات قال[١]:

كل حي على المنية غادي ... تتوالى الركاب والموت حادي
ذهب الأولون قرناً فقرنا ... لم يدم حاضر ولم يبق بادي
هل ترى منهم وتسمع عنهم ... غير باقي مآثر وأيادي؟
كرة الأرض كم رمت صولجانا ... وطوت من ملاعب وجياد
والغبار الذي على صفحتيها ... دوران الرحى على الأجساد

واستمر يسوق الحكم والعبر عن الموت والحياة في عشرين بيتاً الى أن قال:

ساقة النعش بالرئيس رويداً ... موكب الموت موضع الاتئاد
كل أعواد منبر وسرير ... باطل غير هذه الأعواد
تستريح المطي يوماً وهذي ... تنقل العالمين من عهد عاد
أسألتم حقيقة الموت ماذا؟ ... تحتها من ذخيرة وعتاد؟
إن في طيها إمام صفوف ... وحواريَّ نية واعتقاد
أنظروا هل ترون في الجمع مصراً ... حاسراً قد تجللت بسواد؟
تاج أحرارها غلاماً وكهلاً ... راعها أن تراه في الأصفاد

ثم قال:

مصر تبكي عليه في كل خدر ... وتصوغ الرثاء في كل نادي
لو تأملتها لراعك منها ... عزة البر في سواد الحداد
منتهى ما به البلاد تعزى ... رجل مات في سبيل البلاد
أمهات لاتحمل الثكل إلاّ ... للنجيب الجريء في الأولاد
« كفريد » وأين ثاني فريد؟ ... أي ثان لواحد الآحاد؟
الرئيس الجواد فيما علمنا ... وبلونا وابن الرئيس الجواد!
أكلت ماله الحقوق وأبلى ... جسمه عائد من الهم عادي

---

(١) الشوقيات ج ٣ ص ٥٥ ـ ٥٨.

ورثاه أيضاً أحمد محرم بقصيدة طويلة استهلها بقوله[1]:

أترى الكنانة كيف تعبث بالدم ... الله للشهداء وإن لم ترحم
أدنى المراتب في الصبابة عندها ... تلف المحب وطول وجد المغرم

الى أن قال:

يا سيد الشهداء بعد رفيقه ... أرضيت ربك في جهادك فاغنم
ليس الذي بدأ الجهاد فلم يمت ... إلا كبادىء حجة لم تختم
والناس في شرف الحياة وعزها ... ضدان من ماض وآخر محجم
وأجلّ ما رزق الرجال همامةً ... تنفي غرام المطلب المتهجم
تتجشم الصعب المخوف وعندها ... أنّ المنية تركب المتجشم
لك من بقينك ثروة إن قدرت ... قيست كنوز العالمين بدرهم[1]
ايمان ذي الأيمان أعظم ثروة ... يقين ذي الوجدان أفضل منجم
ضج النعاة فضج كل موحد ... وارتج ما بين الحطيم وزمزم

وكانت لوعة أحمد نسيم شاعر الحزب الوطني عليه كبيرة فبكاه ملتاعاً حين بلغه نعيه قال[2]:

رمانا الزمان باحدى الكبر ... ومنه العظات ومنه العبر
شهيد تصارع في حومة ... رماه القضاء بها والقدر
فتى أغمض الموت أجفانه ... وأطبقها بعد طول السهر
أفاض على قومه ماله ... فأدى الحقوق وأسدى البدر

---

(١) انظر صحيفة الأهرام ١٩ من فبراير ١٩١٩ م، وشعراء الوطنية ص ٢٠٢ ـ ٢٤٠، ومحمد فريد ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٢) ومن المعروف عن «محمد فريد» أنه ورث ثروة طائلة عن والده انفقها كلها في سبيل القضية الوطنية وحين وافته منيته كان معدما لا يملك حتى نفقات اعادة جثته من ألمانية.

(٣) مجلة عكاظ ٢٢ من فبراير سنة ١٩١٩ م وانظر شعراء الوطنية ص ٢٢٩، ومحمد فريد ص ٤٩١.

رأى الحرص عاراً على نفسه   فهان على نفسه ما ادخر
وكان بصيراً بعقبى الندى   يرى المال يفنى وتبقى السِّير
وأخلد ما للفتى ذكره   إذا نزل القبر لا ما يذر

الى أن قال:

أرى « كاملاً » راح في شرخه   وأودى « فريد » حميد الأثر
زعيما بلاد خلت منهما   « أبو بكر » مات وولى « عمر »

ورثاه محمد عبد المطلب وأخذ يصف داءه الذي مات به، وحارت الأطباء فيه، وأكل الاستسقاء « كبده وأمعاءه » فكان شهيد الوطن والألم فقال[1]:

سلوا جفن عيني ماله بات ينزف   وعهدي به إن سمته الدمع يأنف
ويا رب هم يملك النفس بالأسى   ويعدو على العين الجمود فتذرف
وما أنا؟ ما دمعي؟ وفي مصر أنة بها الطير نوح والغمائم كف
بكين غريباً طوّح البين داره   فلا العود مأمول ولا الدار تعرف

ثم قال:

قضى الله أن يسقى فريد بأرضنا   كؤوساً بالاستسقاء للنفس تخطف
تجوفه الداء العضال وهل نجا   من الموت مضني داؤه يتجوف
يعز على « برلين » أن يغلب الردى   عليك بينها والردى ليس يصرف
فليت المنايا شاورت فيه أمة   يراها الأسى من بعده والتلهف
عرفنا له بر الوفى بأمة   اذا خان قوم عهد مصر فلم يغوا
أفاض عليها نفسه بعد ماله   ومال بهم عنها متاع وزخرف
ولولا رجال مؤمنون نجوا بها   لراحت بها ريح من الغدر زفزف

وخرج العقاد عن طبيعته في عدم نظم الشعر في المناسبات، ونظم فيه قصيدتين طويلتين احداهما عند نعيه، والأخرى عند وصول رفاته الى مصر.

---

(١) ديوان محمد عبد المطلب ص ١٤٦.

ومما قاله في الأولى[1]:

اطلقت وجداني ومثلك يطلق فـالنفس تألم والجـوانح تخفق
... جاهدت في الدنيا جهاد مثابر لايبتغي أجراً ولا هو يفـرق
تلقـى على النعماء نظرة ساخر ويطير من فرح بها من ترمق
كم غيرت منك السنون وبدلت ووفـاء نفسك ثـابت لايقلق
ما من هوى إلا نسيت ولا أذى الا لقيت، ومـا الختام محقق
سجن ومجهـدة وبعـد أحبـة ووداع آمـال وسقم مـوبق
صابرتهـا زمناً كـان جزاءها عن كل رزء حل تاج مشرق
صبـراً لهداة المـرسلين وعفـة بـين المـلائكـة الكـرام تحلق
اسفي عليك وقد تقسمك الضنى والشـوق والألم الملح المصعق
في عالم يسع المدائن والقرى فاذا طلبت الحق فهو المأزق
وغدوت كالشبـح المردد كلما دجت الحوادث يستثار فيطرق
... ما مات قبلك يا فريد مجاهد إلا وأنت السـابق المتفـوق
يـا مبعداً عنـا وليس بمبعـد جسد له في الأرض لحد ضيق
الأرض أوطان الجسوم وانمـا بالنفس تختلف الجهات وتفرق
لايبعـدنـك الله عنـا راحـلاً ذكراه أثبت في الضمير وأعمق

ثم يقول موجهاً نصحه للشباب:

شبان مصر وما دعوت سوى الألى يحيا بهم أمل البلاد ويورق
لايلهينكم الجـدود ولا المنى أبداً ولا عيش الشباب الريق
أبعيش في لهو الرفاهة من له من كل صعلوك اله مطلق؟
لكم الغد المنشود فاعتصموا به فإذا استقر لكم أساس فارتقوا
بؤسـاكم نجس يعدد مـالـه وحيـاتـه ممـا يبـاع وينفق

وحين أحضر رفات محمد فريد من ألمانية سنة ١٩٢٠م أبّنه العقاد أيضاً بقصيدة طويلة جاء فيها:[2]

(١) ديوان العقاد ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣ مطبعة وحدة الصيانة والانتاج بأسوان سنة ١٩٦٧ م.
(٢) ديوان العقاد ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠.

دار الندى ألا خلعت سوادا؟ هـذا فريـد في الكنانـة عاذا
رجع الغريب وقر من وعث النوى واليـوم ينسى الأين والتردادا
فتنـظرُوه من المغيب كدأبكم زمـراً حـوالي ركبه وفـرادى
أزف اللقاء فانصتوا وترقبـوا بـين المـواكب دارة تتهـادى
وسلوا مطالعها عن الشمس التي شهد الغروب ضياءها الوقادا
بين المغارب والمشارق لم يزل ضوء الشموس مجدداً مزدادا
واغبطة للناس لو صدقت لهم كـل المـطامـع مبـدأ ومعـادا

ورثاه وأبنه أيضا خليل مطران ، وشكيب أرسلان، ومحمد محمود جلال، وابراهيم عبد القادر المازني ، ومحمد الهراوي ، وأحمد الزين، والدكتور زكي مبارك، والدكتور عبد الوهاب عزام ، ومحمد عبد الرحمن الجديلي ، وموسى شـاكر الـطنـطاوي وغيـرهم من الأدبـاء والكتـاب والصحفيـين ، ورجـال السياسة[1].

ومن أجلِّ ما قيل في ذكراه قول شوقي في الاحتفال بالذكرى الخامسة لوفاته سنة ١٩٢٤م[2]:

نجدد ذكرى عهـدكم ونعيد وندني خيال الأمس وهو بعيد
وللناس في الماضي بصائر يهتدي عليهن عاوٍ، أو يسير رشيد
إذا الميت لم يكرم بأرض ثناؤه تحيَّر فيها الحي كيف يسود
ونحن قضاة الحق نرعى قديمهُ وان لم يفتنا في الحقوق جديدُ
ونعلـم أنا في البناء دعائم وأنتم أساس في البناء وطيد
«فريدُ» ضحايانا كثيرٌ، وانمـا مجال الضَّحايا أنت فيه فريدُ
فما خلف ما كابدت في الحق غاية ولا فوق ما قاسيت فيه مزيدُ

---

(١) انظر صحيفة الأهرام في المدة بين ١٧ من فبراير سنة ١٩١٩ م ، ٢٧ منه ، وكذلك في المدة من ٢٠ ديسمبر الى ٢١ من الشهر نفسه ، وراجع كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي من ص ٤٨٦ الى ٤٩٦، وشعراء الوطنية أيضا ص ٥٥ ـ ٥٨، ١٢٤، ١٨٠ ـ ١٨٥، ٢٠٢ ـ ٢٠٦، ٢٢٩، ٢٦٥ ـ ٢٦٨.
(٢) الشوقيات ج ٤ ص ٦٣.

تغريب عشرا أنت فيهن بائسٌ — وأنت بآفاق البلاد شريدُ
تجوع ببلدانٍ، وتعري بغيرها — وترزح تحت الداء، وهو عتيدُ
ألا في سبيل الله والحق طارفٌ — من المال لم تبخل به، وتليدُ
وجودك بعد المال بالنفس صابراً — إذا جزع المحضور وهو يجودُ
فلا زلت تمثالاً من الحق خالصا — على ستره نبني العلا، ونشيدُ
يعلم نشء الحي كيف هو الحمى — وكيف يحامي دونه، ويذودُ؟

ونستطيع ان نلمح من خلال ما قيل في مصطفى كامل، ومحمد فريد صورة واضحة متكاملة عن شعر الرثاء عند شعرائنا في الربع الأول من القرن العشرين، سواء كانوا من شعراء مدرسة النهضة «شوقي، وحافظ، وخليل مطران» أو من شعراء مدرسة التجديد «العقاد، والمازني، وشكري» وغيرهم ممن كانوا على هذا الدرب أو ذاك . فجميعهم جعل من الرثاء تعبيرا فياضا عن مشاعرهم ومشاعر أمتهم وأهوائها السياسية وصبوا فيه أحاسيسهم وأحاسيس امتهم نحو المجاهدين من أجلها ، ولونوا مراثيهم بألوان مختلفة تعدت حدود شخصيات الموتى الى التحدث عما تمر به أمتهم من أحداث وخطوب ، واستطاعوا أن يحولوا شعر الرثاء من البكاء والندب والنواح الى شعر سياسي وطني اجتماعي يتفجر على ألسنتهم تفجراً ، حيث اطلقوا فيه عواطفهم الى معاني الموت والحياة ، وتغنوا بأحلام أمتهم غناء حماسيا رائعا شمل التمجيد لمواقف المخلصين والزعماء والمجاهدين، وصور آلامها وآمالها ومطامحها في الاصلاح وفي الحياة الحرة الكريمة ، وأعطى للشباب المثل والقدوة حتى لا ينسى عبر أحداث الحياة وامجاد الرجال ، وصدق عواطفهم وتضحياتهم من أجل وطنهم ، والأجيال من بعدهم .

وكانت الحرب العالمية الأولى كابوسا رهيبا على العالم وعلى الدول المستعمرة التي وجدت نفسها وسط أتون اللهب من غير ما ذنب أو جريرة ، وذاق الشعراء فيها مرارة الأسر النفسي والروحي، وخفتت أصواتهم ، وتاهت بين أزير الطائرات، وهدير المدافع ، وانفجار القنابل، وعرف العرب كل العرب مرارة الحرب وأهوالها . واختنقت مصر بنار الأحكام العرفية ، وذاقت بأساءها.

وبينما نحن نثور بالمستعمر طلبا للحياة والحرية اذا هو يقتسم ما كان قد بقى مع العثمانيين من بلادنا العربية . فهب العرب في كل وطن من أوطانهم يطلبون حريتهم المفقودة، وحقوقهم المسلوبة، وجاء موت محمد فريد وسط تلك المعمعة فكان مناسبة أخذ الشعراء فيها يعبرون عن عواطفنا السياسية، وآمالنا الاجتماعية ويربطون بينها وبين هذا المجاهد الراحل عن دنيا الفناء، وازداد صوت الشعر في مصر وغير مصر ارتفاعا وحرارة ، وتجاوبت الأصوات من وراء البحار والمحيطات والتقى الشعراء كل الشعراء، سواء كانوا في المهجر أو من أبناء مدرسة النهضة أو من عناصر التجديد ، التقوا جميعا على مبادىء الحرية والجهاد وتغذية كفاحنا ضد الاستعمار، يريدون أن ندق عنقه دقا، ونسحق ضلوعه سحقا ، على نحو ما نعرف عند الشاعر القروي ، والياس فرحات من أبناء المهجر الجنوبي، وعند العقاد من أبناء مدرسة التجديد ـ بعد أن كان شكري والمازني زميلاه قد هجرا الشعر وكفا عنه ـ وان كان المهاجرون الى الشمال ـ وفي مقدمتهم جبران ـ قد نزعوا نزعة قوية الى التجديد، متأثرين بآداب الغرب الا ان من يقرأ أشعارهم ، ويتعمق قراءتها يجدهم لا ينفصلون عنا ولا عن أسلافهم فهم ثائرون ثورة عنيفة على المدنية الغربية ، وهم يحنون حنينا دائبا الى أوطانهم مستشعرين ما كانت ترزح تحته من أثقال الاحتلال.

لذلك وجدنا منهم من يتأثر أبا العلاء في شكوكه ، ومن يتأثر عمر الخيام في حنينه، ومن يتأثر ابن سينا في قصيدته المشهورة عن النفس ، ومن يتأثر متصوفتنا في منازعهم الروحية ، ولكنه جميعا يوقعون على وتر واحد مشدود الى قلوب أبناء أمتهم ينادي في ألحانه بطرد المستعمرين ، والوقوف في وجوههم وتمزيق كل شعار حجب عن اخوانهم الحرية والأمن والاستقلال ، وكان المكافحون من أبناء أمتهم ملء سمع الزمان وبصره ، لذلك كان نوحهم وبكاؤهم على رحيلهم متقارب النسق والايقاع.

وقد عرف الشعراء في كل من محمد فريد، وسعد زغلول زعيما مكافحا مقداما من أجل حرية شعبه واستقلاله، وأخذوا يرقبون خطاه، ويمدونه بالعون والتوجيه ، فيمدحون مساره تارة ، ويناقشونه الرأي أخرى ، وكان المستعمر في

عنفوان قوته وجبروته ، وكانت ارادة الخير في دنيا الناس ضعيفة واهية فلم تجد مصر من يقف معها من دول العالم لينصر حقها على باطل المحتل ، وأجهضتها الثورة ، واضطربت خطا المجاهدين ، وراحت الآمال تذبل شيئا فشيئا حتى روعت مصر بموت سعد زغلول في ٢٣ من أغطس سنة ١٩٢٧م، وعاد رجع النواح من جديد الى قلوب الشعراء، وتجمع عليهم بكاء الماضي وأنينه فأخرجوه زفرات محرقة على من كان ثورة وأملا للثورة . وجاءت قصيدة شوقي في رثائه :[1]

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها　　　وانحنى الشرق عليها فبكاها

أعظم قصيدة قالها في الرثاء من قبل ومن بعد ـ فقد جعل موت سعد وتكفينه ودفنه ، موتا للشمس وتكفينا لها ودفنا والشمس في روعتها وجلالها عنصر الحياة وسر بقائها. وقد أفلت بموت سعد، فكيف تكون الحياة ؟ قال:

ليتني في الركب لما أفلت　　　يوشع همت فنادى، فثناها
جلل الصبح سواداً يومها　　　فكأن الأرض لم تخلع دجاها
انظُروا تلقوا عليها شفقا　　　من جراحات الضحايا ودماها
وتروا بين يديها عبرةً　　　من شهيد يقطر الورد شذاها
آذن الحقُّ ضحاياها بها　　　ويحهُ.. حتى إلى الموت نعاها
كفنوها حرة علوية　　　كست الموت جلالاً وكساها
مِصر في أكفانها إلاَّ المدى　　　لحمةُ الأكفان حقٌ وسداها
خطر النعش على الأرض بها　　　يحسر الأبصار في النفس سناها

وبعد أن مضى مع الشمس طويلا انتقل الى تصوير شخصية الفقيد وكفاحه فقال : ـ

يا عدوَّ القيد لم يلمح له　　　شبحاً في خطةٍ الا أباها
لا يضق ذرعك بالقيد الذي　　　حزَّ في سوق الأوالي وبراها
وقع الرسل عليه، والتوت　　　أرجل الأحرار فيه فعفاها
يا رفاتاً مثل ريحان الضحى　　　كللت «عدنٌ» بها هام رباها

(١) الشوقيات ج ٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٩.

وبقـايـا هيكـلٍ من كـرم | وحيـاة أترع الأرض حيـاهـا
ودع الـعـدل بهـا أعـلامـه | وبكت أنظمة الشـورى صُواها
زائـدُ الحق وحـامي حـوضـه | أنفذت فيه المقـادير منـاهـا
اخذت «سعداً» من البيت يـدٌ | تأخُذُ الآسـاد من اصل شـراها

ثم أخذ يصور حزن الشعب وآلامه فقال:

سكب الدَّمع على «سعد» دما | امـةٌ من صخرة الحق بنـاهـا
من لبـان هو في ينبـوعـهـا | وابـاء هـو في صم صفـاهـا
لقن الحـق عليـه كـهـلهـا | واستقى الإيمان بـالحق فتـاهـا
بـذلت مـالا، وأمنـا، ودمـا | وعلى قـائدهـا ألقت رجـاهـا
حـملتـه ذمـة أوفى بهـا | وابتلتـه بحقـوقٍ فقضـاهـا
اعلمتم بعـد «موسى» من يدٍ | قذفت في وجه «فرعون» عصاها؟
وطئـت نـاديـة صـارخـة | شاه وجه الرق - يا قوم - وشاها

* * *

أين من عيـني نـفسٌ حـرةٌ | كنت بـالأمس بعيني أراهـا؟
أيـن مـني قـلم كـنـت إذا | سمته أن يرثي الشمس رثاها؟
خانني في يوم «سعدٍ» وجرى | في المراثي فكبا دون مـداهـا
في نـعـيـم الله نـفسٌ أوتـيـت | أنعم الـدنيـا فلم تنس تقـاهـا
لا الحجى لما تناهى غـرهـا | بـالمقـادير، ولا العلم زهاها
ذهـبـت أوابـةً مـؤمـنـةً | خالصاً من حيرة الشك هُداها

وإذا كانت سمة الرثاء - كما يقول ابن رشيق -[1] «أن يكون ظاهر التفجع بيِّن الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسى والاستعظام» فان هـذه المعاني كلهـا نجدها في مراثي حافظ، فما نكاد نقرأ له مقطوعة يرثي فيها عزيزاً عليه حتى نحس باللوعة والحسرة تفيض من وجدانه لتلمس وجدان الناس. ونشعر كأنه

---

(١) انظر العمدة جـ٢ ص ٢٤٧ (في محاسن الشعر ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي - حققه وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢ م.

كان يبكيه فعلا من قلبه وجوارحه ، وقد أجاد حافظ في مواقف الرثاء ووصف الفواجع ، لأنه كان يستوحي الالهام من كامن حزنه الحقيقي لمن رحل من الأعلام في الأدب والفن، أو من فقدهم الوطن من الزعماء والقادة ، وكان شعره في الرثاء صادق اللهجة بعيد الأثر لشفقته المرفرفة على المآسي البشرية[1] ولأنه كان يتمتع بقدر كاف من صدق العاطفة، ونبل الشعور.

ولعل هذه الحقيقة ترجع الى شعوره بالآلام والأحزان منذ صغره نظرا ليتمه وفقره وتعثره في الحياة وفي مجالات العمل ، ولأنه شاعر من رأسه الى أخمص قدميه ، فقد صقلته هذه المحن ، وجعلت منه انسانا نقي السريرة طيب القلب تحزنه آلام الناس ومصائبهم ، وتهز فؤاده محن الوطن وبلاياه فيبكي عليه بالدم والدمع ، ويودع الراحلين من زعمائه بقلب ملهوف، وفؤاد ممزق، وقد كان «سعد» بالنسبة له زعيما ومنصفا وأملا للوطن، ولذلك ودعه بأطول قصائده في الرثاء، وأبلغها في الحزن ، وأصدقها في العاطفة ، ومما قال فيها :[2]

إيه يا ليلُ هل شهدت المصابا ... كيف ينصب في النُّفوس انصبابا؟
بلغ المشرقين قبل انبلاج الصُّبـ ... ـح أنَّ الرَّئيس ولّىَ وغابا
وانع للنيرات «سعدا»فـ «سعدٌ» ... كان أمضى في الأرض منها شهابا
قد يا ليلُ من سوادك ثوبا ... للدراري[3] وللضُّحى جلبابا
قل لها: غاب كوكب الأرض في الأر ... ض فغيبي عن السَّماء احتجابا
والبسيه عليه ثوب حدادٍ ... واجلسي للعزاء فالحزن طابا
اين «سعدٌ» فذاك أول حفلٍ ... غاب عن صدره وعاف الخطابا

ويصور حزن الأمة على موت سعد فيقول: ـ

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٩٦٦ طبع دار صادر بيروت سنة ١٩٥١ .

(٢) ديوان حافظ جـ ٢ ص ٢١٨ ـ ٢٢٦

(٣) الدراري (بتشديد الياء جاءت هنا لضرورة الشعر) هي الكواكب المضيئة الصافية الشعاع .

خــرجــت أمــةٌ تشــبــع نعشـا ... قــد حــوى أمة وبحـراً عُبـابـا
حمــلوه عــلى المــدافــع لمّــا ... اعجــز الهـام حملُهُ والــرقـابـا
حال لون الأصيل والدَّمعُ يجري ... شفقـا سـائـلاً وصبحـاً مُــذابـا
وسهـا النيـل عن سـراه ذهُـولاً ... حين ألفى الجموع تبكي انتحابا
حـين قال: انتهيتُ قلنـا بدأنـا ... تحمل العبء وحدنـا والصعابـا
فاحجبوا الشَّمس واحبسوا الرُّوح عنَّا ... وامنعونا طعامنا والشـرابا

ولأن حافظاً كان يقول الأستاذ محمد خلف الله[1] في مراثيه «يذهب قطعة من نفسه، ويندب حظه في أحبابه، وحظ أمته في رجالها، وحظ المشرق في نابغيه» نراه يخلع عليهم حلل البهاء والروعة، ويصفهم بأكمل الصفات الانسانية وأرقاها وتنساق له المعاني طيعة متآلفة في تصوير شخصية من يندبه حتى تتحول تلك الشخصية الى شيء ماثل للعيان، مرئي للأجيال ما بقيت الحياة والأحياء.

ومن قوله في صفات سعد: ـ

تقتـل الدَّسَّ بـالصـراحـة قتـلاً ... وتسقي منـافق القـوم صـابـا[2]
وتـرى الصدق والصـراحة دينـاً ... لا يــراهُ المُخَـالفـون صــوابـا
تعشق الجوَّ صافي اللَّون صحوا ... والمضلُّون يعشقــون الضَّبــابـا
قد جمعت الأحزات حولك صفًّا ... ونــظمت الشُّيــوخ والنُّــوابـا
وملكت الزِّمـام واحتـطت للغـ ... ـيب وأدركت بالآنــاة الـطلابـا
حـرمتنا المَنُـونُ ذيـالـك الـوَجْـه ... وذاك الحمى وتلك الرِّحــابـا
وسجـايــا لهُنَّ في النَّفس روحٌ ... يعــدل الفوز والــدُّعـاء المجـابـا

ولم يكثر العقاد من قول الشعر في مناسبة كما أكثر في رثاء سعد، كما لم يتناول انسانا بالمدح والتقدير كما تناوله أيضا، وجاءت قصيدته في تأبينه يوم الأربعين من وفاته شاملة لحياة سعد وكفاحه وفكره وعمله، وأطال فيها حتى

---

(١) انظر مجلة الكاتب اكتوبر سنة ١٩٤٧ م المجلد الرابع ص ١٥٤٢، ١٥٤٣
(٢) الصاب عصارة شجر مر.

بلغت مائة وتسعين بيتا، وفيها يقول:[١]

امضت بعد الرئيس الأربعون؟ عجباً! كيف اذن تمضي السنون
فترة التيه تغشت أمةً غاب موساها على «طورسنين»[٢]
لِمَ يا دُنيا ـ قد أنشأتِهِ بِدعه ـ في خلده لا تبدعين؟
عاش ممنوع قرين في العلا ليته في الخلد ممنوع القرين
يا غريب القبر في دار البلى بك هذا العالم الحي ضنين
ليس للموت على الذكر يدٌ في بقاياك، ولا للشانئين
ليس يبكي خطب سعدٍ يائسٌ اين من سعدٍ ضعافٌ يائسون؟
إنما يخلق أن يبكيه من أصابوا منّة عزما لا يلين
لم يصب منه نصيباً من هوىً خائنٌ العزم، فما كان يخون
أي نذير الحق من وادي الرّدى قم فأنذُرهم عساهم يعلَمُون
يا كبير النفس في ميعته وفتى اليأس ولون العمر هون
وعصا ميا بنى الطود وكم هدمت أطواد أقوام بنون
زاهداً في كل فانٍ ولهُ طمعٌ في المجد اغيا الطامعين

وبعد أن تناول أهم القضايا التي تصدى لها سعد في حياته قال :

إن بكت مصر عليه شجوها إنني بالشجو وحدي لقمين
رزئته النفس واللب وما يشتهي الرّاوي ويبغي الدّارسون
لم يكن بالأب الا أنه كان نِعم الأب في رفق ولين
كم سعى ساع إليه ووشى ومقامي عنده ألعالي المصون
يا هدى الأمة يا نعم الهدى يا خدين الصّحب يا نعم الخدين

وكان الشاعر محمد عبد المطلب من المقربين الى سعد زمن جلسائه المفضلين، لذلك كان رثاؤه له رثاء المفجوع على صديق وأب وزعيم يقول:[٣]

---

(١) ديوان العقاد ص ٢٨١ ـ ٢٩٢.
(٢) كلمة فترة بمعنى الزمن المطلق خطأ شائع وقع فيه العقاد، د/ سرحان .
(٣) صلاح ـ بكسر الحاء غير منونة . . كقطاع ـ: اسم مكة، وقد تصرف.

نعى الناعي إلى مصر أباها فزلزلت الظّواهر والبطاحُ
فلا جزعٌ هناك ولا اصطبارٌ ولا صمتٌ تقول ولا صياحُ
نعيٌ هدَّ «بغداداً» و«نجداً» وناح الشام وانتحبت «صلاح»[1]
تبوأ بالردى داراً طروحاً ودار الموت نازحة المراح
وأصبح «بيت أمته» خلاءً تخشع منه ذو شرق ماحُ[2]
وكان لقومه داراً حراماً كمكةَ لا تحلُّ ولا تباحُ
تلألأ فيه أنوار الأماني لها من كل ناحيةٍ لتاح[2]
نعى الناعي بجنح الليل سعداً فيالله ما فعل الصَّباح
اذا غلب الأسى يا أمَّ مصرٍ فلا اثمُ عليك ولا جناحُ
ولكن أنت اكرم من تعزّي إذا ما جدَّ بالحزن النياحُ
جعلت الصبر في الأزمات حُسناً به تتزين الغيد الملاحُ

وتمضي الحياة بعد سعد، وينطلق الشعراء فيها يوقعون أنغامها على أوتارهم المختلفة وتسوقهم أحداثها الى تلوين أشعارهم بألوانها القاتمة والزاهية ، وتبدو عليهم مرارة فراق الأحباب والأصدقاء فينطلق معظمهم الى الطبيعة يناجيها ويأنس اليها، ويقل شعر المناسبات، ويكثر شعر الوجدان، خاصة عند شعراء الجيل الثاني، علي محمود طه، وأحمد زكي أبي شادي، وابراهيم ناجي وغيرهم حتى يأتيهم خبر موت عبد الخالق ثروت أحد الزعماء الذين تولوا رياسة الوزارة أكثر من مرة ، وذلك في سنة ١٩٢٨ م من باريس حيث كان يعالج هناك وكان بينه وبين شوقي بالذات صداقة حميدة، ومودة قديمة، ظهر أثرهما في رثائه له حيث يقول :(٣)

يَمُوتُ في الغاب أو في غيره الأسد كُلُّ البلاد وسادٌ حين تتسد
قد غيب الغرب شمساً لا سقام بها كانت على جنبات الشرق تتغيد

---

(١) الشرق ـ بالتحريك ـ مطلع الشمس أو الضوء ورباح : أحد الزعماء القدامى.
(٢) لتاح ـ كغراب ـ : رجل عاقل أريب .
(٣) الشوقيات جـ٣ ص ٦٢ ـ ٦٦، توفى عبد الخالق ثروت في ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩٢٨ بباريس.

حدا بها الأجل المحتوم فاغتربت ... إنَّ النفوس الى اجالها تفدُ
كلُّ اغتراب متاعٌ في الحياة سوى ... يوم يفارق فيه المهجة الجسدُ

ثم يقول :

يا باني الصَّرح لم يشغله ممتدحٌ ... عن البناء، ولم يصرفه منتقدُ
أصم عن غَضبٍ من حوله ورضى ... في ثورة تلد الأبطال أو تئد
لم يطغك الحُكم في شتّى مظاهِرِهِ ... ولا استخفّك لينُ العيش والرَّغدُ
تغُدُ وعلى الله والتاريخ في ثقةٍ ... ترجو فتقدُمُ، أو تخشى فتتئدُ
نشأت في جبهة الدُّنيا وفي فمها ... تدُورُ حيثُ يدُورُ المجدُ والحسدُ

وفي حفل تأبينه بدار «الأوبرا» ألف حافظ فيه أيضا قصيدة رائعة قال فيها(١).

لعب البلى بملاعب الألباب ... ومحا بشاشة فمك الخلاب
وطوى الرَّدى «عمرو» الكنانة غافلاً ... ورمى شهاب دهائه بشهاب
من كان يدري يوم سافر أنه ... سفرٌ من الدُّنيا بغير إياب
حزنت عليه عقولنا وقلوبنا ... وبكت، ومُزْن العقل شرُّ مصاب
لله سرٌّ في بناية «ثروت» ... سبحان باني هذه الأعصاب
إني سألت العارفين فلم أفز ... منهم على عرفانهم بجواب
هو مستقيم مُلتوٍ، هو لين ... صلبٌ، هو الواعي، هو المتغابي
هُوَ حولٌ، هو قلبٌ، هُوَ واضحٌ ... هو غامضٌ، هو قاطِعٌ، هُوَ نابي

* * *

وكان عبد العزيز جاويش أحد عناصر الحركة الوطنية النشيطة، بدأ كفاحه مع مصطفى كامل، وتابعه من بعده مع محمد فريد، وعرفت عنه الصلابة في الحق، واقتحام المخاطر بلا خوف أو وجل، وتولى رياسة تحرير صحف الحزب الوطني «اللواء» و«العلم» و«الشعب» فوقف حياته فيها لخدمة القضية الوطنية المصرية ، وقضايا البلاد الاسلامية عامة، وحكم عليه بالسجن

---

(١) ديوان حافظ جـ ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣٥ .

مرتين في قضايا تتعلق بالرأي والكلمة ، وتقبل الأحكام في صبر وثبات كما أشرنا قبل ذلك، وكان التفاف الشعب حوله وتكريمه في كل مرة يدخل السجن فيها أكبر عزاء له عن ظلم الحكام وبطش المحتلين، ثم حكم عليه بالنفي والتشريد عن الوطن سنة ١٩١٣م، كما حكم على محمد فريد أيضا، وظل بعيدا عن الوطن يعاني آلام الغربة والحنين اليه، حتى عاد سنة ١٩٢٤ م، ومات سنة ١٩٢٩م، وله رسائل سياسية كانت مضرب المثل في الفصاحة والقوة في وقتها، كما كان له آراء دينية واعية تشابه فيها مع أستاذه الشيخ محمد عبده، وأحبه الشعراء وألفهم وألفوه ، وأفسح لهم صدور صفحات الصحف التي تولى رياستها ، وحين مات بكوا فيه هذه الفضائل كلها ، وكان شوقي أكبر المنصفين له حيث قال: (١)

أصاب المجاهد عقبى الشهيد ... وألقى عصاه المضاف الشريد
وليس جماداً عدوُّ الجمود ... وبات على القيد خصم القيود
طريد السياسة منذ الشباب ... لقد آن أن يستريح الطريد
لقيت الدَّواهي من كيدها ... وما كالسياسة داءٌ يكيد
حملت على النفس ما لا يطاق ... وجاوزت المستطاع الجهود
وقلبت في النار مثل النُّضار ... وغربت مثل الجمان الفريد
أتذكر إذ أنت تحت «اللواء» ... نبيه المكانة ، جمُّ العديد!
إذا ما تطلعت في الشاطئين ... ربا الريف، وافتن فيك الصعيد
وهز الندى لك المنكبين ... وراح الثرى من زحامٍ يميد
رسائل تذري بسجع «البديع» ... وتنسي رسائل «عبد الحميد»
يعيها شيوخ الحمى كـ «الحديث» ... ويحفظها النسن حفظ «النشيد»
فما بالها نكرتها الأمور ... وطول المدى، وانتقال الجدود؟
لقد نسى القومُ أمس القريب ... فهل لأحاديثه من مُعيد؟

وفي العام نفسه مات محمود سليمان(٢) رئيس اللجنة المركزية للوفد،

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٦٦ - ٦٨.

(٢) توفي محمود سليمان في ٢٢ من يناير سنة ١٩٢٩ م عن وتسعين عاما. وهو والد محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين والذي تولى رئاسة الوزارة عدة مرات.

والذي كان له دور كبير في النهضة الوطنية ، وكان موجودا زمن ثورة عرابي، وأدى دوره الوطني فيها، ولذلك رثاه حافظ وكرمه حيث قال:(١)

مسدي الجميل بلا منٍّ يكدره ... ومكرم الضيف أمسى ضيف «رضوان»
إني رأيتك قبل الموت في فلكٍ ... من الجلال على جنبيه نُوران
نُور اليقين ونور الشيب بينهما ... سكينة حركت نفسي ووجداني

وما ان وصلنا الى أواخر العقد الثالث من هذا القرن حتى وجدنا المستعمر يعنف بمصر عنفا متصلا لا يراعي فيه الا ولا ذمة، فتخنق الحريات، وتفتح السجون لكل من تحدثه نفسه بنقد سياسي، أو حتى بكلمة عابرة في رثاء أو مدح ، أو تأبين تتصل بالقضية الوطنية ، ومواقف الرجال منها، وعمت الشعر العربي العصري نزعة فردية قوية ، تغنى فيها الشعراء بعواطفهم الشخصية، وقلما تعرضوا لعواطف شعوبهم وأهوائها السياسية، فضعف شعر الرثاء كما ضعف غيره لأنه كان بالدرجة الأولى تعبيرا عن خلجات الأمة، من أجل رجالها الذين عاشوا وماتوا في سبيل عزتها ومجدها .

وقد عقد كثير من النقاد فصولا لبيان ما بين هؤلاء الشعراء وأصحاب النزعة «الرومانسية» الغربية من تشابه بينهم وبين أسلافهم من الشعراء العباسيين الذين كانوا ينسون بيئاتهم وشعوبهم من أمثال أبي نواس، ولا يفكرون الا في أنفسهم وفي الحب والخمر وقد تلاحظ على أصحاب هذه النزعة أنهم كانوا لا يعمقون قراءتهم في تراثنا الشعري القديم، غير أنهم عكفوا على قراءة شعراء النهضة ، فاتصلوا بهذا التراث اتصالا غير مباشر. ونستطيع أن نرد كلا منهم في يسر وسهولة الى الشاعر الذي كان يتخذه مثلا أعلى له يعيش في شعره ، ويحيا في فنه، فابراهيم ناجي مثلا كان يقتدي بخليل مطران ويستمد من ينبوعه الوجداني، على حين كان على محمود طه يقتدي بشوقي ويستمد منه ينبوعه الموسيقي وأنغامه العذبة ويستلهم معانيه ويعزف على أوتاره.

واستمر هذا الظلم يعصف بالرجال، ويقصف الأقلام، ويحرق الوجدان

---

(٢) ديوان حافظ جـ ٢ ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

حتى توفي حافظ وتبعه شوقي سنة ١٩٣٢م. وشغل الناس بما هم فيه من غم وضيــق حتى وقعت معاهدة سنة ١٩٣٦ وبدأت الحياة السياسية في مصر تأخذ شكلا جديدا وبدأ القراء معها في عصر جديـد يحتاج الى دراسـة أعمق وأشمل .



الفصل الرابع

العزاء والمواساة

إذا كان الرثاء والتأبين لهما مكانة كبيرة في الشعر العربي على مدار التاريخ ، فإن هناك فنا آخر من فنون الشعر لا يفترق عنهما، وإن قلّ في البكاء والنواح ومال الى المواساة والتذكير بحقيقة الموت والحياة والعظة والعبرة منها . هو فن العزاء، ذلك العزاء الذي يلونه الشاعر بألوان كثيرة يبتغي منها الصبر على محنة الموت ومواساة أهل الفقيد ودعوتهم إلى السلو ونسيان المصيبة ، والعزاء بمعناه الوضعي، يعني التعزي والتسلي عن كل مكروه ثم اقتصر استعماله على الصبر في كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر، وتعلم الناس فيه أن يشاركوا الآخرين في تشييع موتاهم، وأن ينطلقوا معهم في توديع رفات أفراد أهليهم وأحبابهم الى مثواهم الأخير ، وتتقارب النفس والوجدان عنده لأن كل الناس راحلون ، وهذا قرارهم الذي إليه ينتهون ، ومهما طالت الحياة بصاحبها فإنه سيمضي عنها يوما، لأن الدنيا دار زوال وانتقال وليست دار بقاء واستمرار، وكل امرىء شقيا أو سعيدا يؤدي دوره حتى يأتيه الحين، ويدرك الناس وهم على درب تلك الرحلة أن كل شيء إلى زوال، وأن الحياة تعطيهم الدليل عليها في كل لحظة، فالنهار المشرق يدبر ليعقبه الليل المظلم، وتتغير الطبيعة، وتتبدل مع فصول السنة ، فالسحب في الشتاء تتجمع وتتألف، وتبكي السماء، ثم يصحو الجو في الربيع ويصفو، وتسقط الأوراق والأزهار في الخريف، وتعود اليها الحياة مع قطرات المطر في الشتاء، وندى الهواء في الربيع ، والانسان ضعيف مستسلم أمام هذا التغير والتقلب، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئا ثم سرعان ما يعصف به الموت، ويطويه كما طوى غيره عبر آلاف السنين.

أدرك الانسان منذ بدء الخليقة هذه الحقيقة، وعرف أن ليس له الا أن

يذعن اذعانا لهذا المصير، وتنادى الناس للعزاء حتى يفكوا قيود الخوف عن أنفسهم ، فهم مشدودون نحوها بيد خفية تدبر شؤونهم، وتمضي حكمها فيهم ، ولكن أمور العيش والحياة تصرفهم عنها ، حتى اذا ما فاجأتهم بالعصف بالأحباب والمعارف راحوا يتذكرون الموت واقتداره عليهم سواء كانوا صغارا أم كبارا، أقوياء أم ضعافا ، سعداء أم أشقياء، حكاما أو محكومين الكل عنده سواء، وعلى دربه يسير.

ويأتي العزاء عند الموت وكأنه جرع من رحيق يتداوى بها المعزي والمعزى معا، فكلاهما يعرف أنه مهما فكر وقدر ليدفع الموت عن نفسه أو عمن أحب، فانه عاجز عن ذلك، ولا بد من إحتمال المكروه والصبر على الموت، فتلك سنة الكون.

وعزاء الشعراء منذ القدم أجمل العزاء وأحسنه لأنه يأخذ من وجدان الشاعر وخياله عبر الحياة ، ومواعظ الموت ، فإذا ما انساب منه الى أهل الميت كان بردا على قلوبهم المكلومة ، ونفوسهم المحزونة ، وخفف عنهم ما لم تستطع تخفيفه آلاف الكلمات . وذلك فعل الشعراء في الجاهلية والإسلام، وكثيرا ما عاد الشعراء بعد البكاء والأنين واللوعة إلى أنفسهم ورأوا أن كل ما يصنعونه لا يغني عنه شيئا، لأن المحنة في حقيقتها محنة الناس جميعا ، فاستسلموا لها حتى في أعز أحبابهم وأبنائهم واخوتهم. وقد عرف الشعر الجاهلي «الخنساء» أكبر باكية ومبكية على أخويها وهما أعز من أحبت ، ولكنها بعد طول بكاء لم تجد مفرا من أن تقول:(١)

ولولا كثرة الباكين حولي ... على اخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولا ... وباكية تنوح ليوم نحسي
وما يكون مثل أخي ولكن ... أعزّ النفس عنه بالتأسي
فلا والله لا أنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي

ونجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر، شأنهم شأن غيرهم من الشعراء في مختلف العصور، لأن الموت حقيقةٌ ومصيراً لم يسلم منه

(١) ديوان الخنساء ص ٨٤، ٨٥

أحد، لا ملك ولا سوقة . وكم من دولة زالت وجماعة بادت وأمم محيت. والشعراء أقرب الناس الى استيعاب هذه الحقائق والتأثر بها ، كما كان لخيالهم تأثير كبير في تخطي الواقع ، وتصوير غير المدرك ، وجعله مقبولا لديهم ولدى الآخرين . وكان الموت والفناء ماثلا أمامهم لأنه ضارب في جذورهم وفروعهم يرونه ويمتحنون به ، ويعرفون أنه شيء مقدر يجب التسليم بـه والخضوع لأحكامه ، وذلك على الرغم من فساد عقائدهم.

وكثيراً ما تحول رثاؤهم من الندب والتأبين والعزاء إلى بحث مشكلة الموت والحياة وبدلا من أن ينظروا إلى الموت نظرة عابرة اتجهوا إلى النظرة التحليلية في حقيقة الحياة وحقيقة الموت ، ومن أين نأتي وإلى أين نذهب ؟ وما الفرح وما الحزن ؟ وما علاقتنا بالوجود ؟ فهو في الظاهر رثاء ولكنه في الحقيقة تفكير فلسفي خليق بالبحث والدرس. وهذا عدي بن زيد العبادي أحد شعراء الجاهلية يعطينا مثالا على ذلك حيث يقول: (١)

أين أهل الديار من قوم نوح ... ثم عـاد من بعـدهم وثمـود
أيـن آبـاؤنـا وأيـن بنـوهـم ... أيـن آبـاؤهـم وأيـن الجـدُودُ
سلكـوا منهج المنـايا فبـادوا ... وأرانـا قـد كـان منـا وُرُودُ

وفي قصيدة أخرى يقول :(٢)

أيها الشـامت المعـير بالـدهـ ... ـر أأنـت المـبرأ المـوفـور؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ... ـام أم أنت جاهـل مغـرور؟
من رأيت المنـون خلدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفـير؟
أين كسرى، كسرى الملوك أنوشر ... وان أم أيـن قبـله سـابـور؟

---

(١) انظر ديوان عدي بن زيد العبادي التميمي ص ١٢٢ تحقيق وجمع محمد جبار المعيد ، طبع دار الجمهورية للنشر بغداد سنة ١٩٦٥، وانظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٤٩ ففيها الأبيات من ١ ـ ٥، ٧ وعيون الأخبار بها ١، ٤، ٥، ٦، ٧، وشيخو ص ٤٧١. ١، ٤، ٦، ٧، ودراسة عنه لمحمد علي الهاشمي ص ٢٤٧.

(٢) ديوان عدي بن زيد ص ٨٧، ٨٨ وانظر الأغاني جـ ٢ ص ١٥١، وابن قتيبة جـ ١ ص ١٥٣، وانظر أيضا دراسة تحليلية لشخصية الشاعر وبيئته عبد علي الهاشمي ص ٧٠ ـ ٨٢، ١٠٣ ـ ١٠٩، ١٣٣ وما بعدها ـ المكتبة العربية حلب جـ ١ أول سنة ١٩٦٧ م.

وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور
وأخو «الحضر اذ بنا، واذ دجـ ـلة تجبى اليه والخابور
شادَهُ مرمرا وجلله كلسـ ـأً فللطير في ذراه وكور
لم يدعه ريب المنون فباد الـ ـملك منه فبابه مهجور
وتأمل رب «الخورنق» إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يـ ـلك والبحر معرضاً و«السدير»
فارعوى قلبه فقال: وما غبـ ـطةُ حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأ مة وارتهمو هناك القبور
ثم اضحوا كأنهم ورقٌ جف فألوت به الصَّبا والدبورُ

وجاء الاسلام نورا للقلوب، وهداية للنفوس، وارشادا للعقول فتغيرت المفاهيم، وأصبح الموت خلاصا للبدن والروح من أدران الحياة، وقضاياها النفسية والعقلية والاجتماعية ، وملتقى للأهل والأحباب والأوفياء الذين رحلوا أو يرحلون كل يوم، وحرص المجاهدون من أسلافنا على الموت لأنه الحياة الحقة بالنسبة اليهم ، وعرف عن جماعة كالخوارج أنهم يستعذبون الموت غير آبهين بالحياة ، وأنهم لا يبكون على قتلاهم ، بل يرون في قتلهم السعادة المنشودة، وأن شعراءهم كانوا يمجدون في مراثيهم قتلاهم ايمانا منهم بواقع الحياة ، وأنها الى فناء، واخذ فن الرثاء يبسط ذراعيه بسطا واسعا حتى رأينا الشاعر العباسي يتعمق في تحليل آلامه ، بل آلام الانسانية وأوصابها ازاء هواتف الموت ، ورقدته الأبدية. وجاءت مراثيه لمصارع الأبطال والقواد في الحروب تمجيدا لبطولتهم ونضالهم حتى الموت الزؤام دفاعا عن العرين . وهو اتجاه ان دل على شيء فانما يدل على وعي كامل يخلق روح التأسي بالأبطال والمجاهدين في نفوس الشباب، ودفعهم الى التضحية بالنفس حفاظا على دينهم وأوطانهم ودفاعا عن حياتهم وحياة أمتهم ـ كذلك جعلوا من العزاء فنا رائعا للتسلية عن الميت ونسيان المصيبة وإدراك أن الراحلين من الأبناء والآباء والأمهات والأخوة قد رحلوا عن دار الشقاء والعناء والتعب الى دار السعادة والخلود والراحة ، وكم من مفجوع في عزيز لديه ارتاحت نفسه ، واطمأن فؤاده على اثر أبيات جادت بها قريحة شاعر نابه في عزائه عن مصيبته .

فحين مات علي ابن الخليفة الناصر لدين الله وكان فتيا في ريعان شبابه جزع عليه ابوه جزعا شديدا فعزاه فيه الشاعر المصري كمال الدين ابن النبيه بما خفف عن نفسه وسرى عن فؤاده، وذلك حيث قال:[1]

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو الى داره ... الا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد على كفه ... جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بد أن ... يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا ... سرى إلى الأجساد هذا الفساد

ثم قال :

خليقة الله اصطبر واحتسب ... فما وهي البيت وأنت العباد
في العلم والحلم بكُم يقتدى ... إذا دجا الخطب وضل الرشاد
أنت سماءٌ طلعت زهرها ... لا ينقص الأفل منها عداد
وأنت لـج البحر ما ضره ... أن سال من بعض نواحيه واد

وأخذ فن العزاء ألوانا مختلفة تبعا لطبيعة الشاعر وقدراته الفنية ومزاجا الشخصي، وتأثره بالموقف، وعلاقته بصاحب المصيبة .

فبعض الشعراء كان عزاؤه كله مواساة وفلسفة للموت والحياة ، وتذكيرا برحلة الآخرة ، وتمجيدا للصابرين على الموت ، ومواصلة المسيرة حتى يحين الحين ويأتي القضاء.

وبعض آخر كان يحول التعزية الى بكاء على الفقيد واشادة به تنفيسا عن المحزونين ، ومداواة للقرح بالقرح فهم يبكون معهم ويسترجعون حتى تثوب نفوسهم إلى رشدها، وتسكن بعد فورة الدمع، وثورة النواح والأنين ، وتعود الحياة سيرتها أملا وعملا ، ويصبح الراحل ذكرى لا تغيب عن النفس ، ولكنها تمنع نبض القلب واستمرار البقاء، وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك عند موت الأبناء وفلذات الأكباد ويصور لنا ذلك أعظم تصوير قول أبي تمام في (١)

(١) ديوان ابن النبيه المصري ـ تحقيق عمر محمد الأسعد ص ١٠٤ ـ ١٠٩ طبع دار الفكر الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩.

ابنين لعبد الله بن طاهر صاحب خراسان أيام حكم المأمون ، وقد فجع فيهما من يوم واحد وهما طفلان صغيران يقول[1]

ما زالت الأيام تخبر سائلا	أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا
نجمان شاء الله ألا يطلعا	إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا	لأجل منها بالرياض ذوابلا
لو ينشآن لكان هذا غاربا	للمكرمات وكان هذا كاهلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما	لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكوتهما حجىً وصباهما	حلما وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه	أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

* * *

فمع أنهما كانا طفلين في المهد ، فقد خلع الشاعر عليهما صفات النجابة والعزة ، وأخذ يصورهما بصور تكبر من المصيبة فيهما ، يريد بذلك أن يعلي قدرهما، وأن يقول أنهما بلغا الغاية نضارة وحلاوة وأن موتهما على هذه الصورة أجل وأروع من أن يصيبهما الهزال والتعب . ثم اتجه بعد ذلك الى المواساة والتحدث عن الوقار الذي يتحلى به أبوهما ، وعن قدرته على مواجهة الحادثات والصبر عليها .

ومن أجمل ما قيل في العزاء عن الأبناء والتسلية عن المصاب فيهم عزاء المتنبي في أبي الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة، حين رحل عن هذه الحياة الى الدار الباقية قبل أن يبلغ مبلغ الرجال .

وقد اتجه المتنبي في مطلع قصيدته تلك الى وصف الحزن على الفقيد وتوضيح أنه يبكيه كما يبكيه أبوه وأمه، وأن مثله لا يبكي عليه بمقدار سنه وانما يبكي عليه بقدر أصله وشرفه[2]، والمرجو منه والمؤمل فيه ، ثم انتقل من

---

(١) ديوان أبي تمام جـ ٤ ص ١١٣ ـ ١١٨

(٢) انظر فنون الأدب العربي ـ الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص ٩١.

معاني الحزن والبكاء الى تمجيد والد الفقيد وذكر مآثره ومحامده وشجاعته وصبره وذلك حيث قال :(١)

تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
أقل بلاء بالرزايا: من القنا وأقدم بين الجحفلين من النبل
عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فإنك نصلٌ والشدائد للنصل
ولم أر اعصى منك للحزن عبرةً وأثبت عقلا والقلوب بلا عقل
ومن كان ذا نفسٍ كنفسك حرةٍ ففيه لها مغنٍ وفيها له مسلى
وما الموت الا سارقٌ دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل
بنفس وليدٍ عاد من بعد حجله الى بطن أمٍ لا تطرق بالحمل

ثم اتجه كعادته الى الحكمة والموعظة، وأخذ يبين أن الحياة في الدنيا الى رحيل وأن المؤمل فيها مغرور، فالبقاء فيها قليل وغير مأمون ، وهي لا تستحق منا الا الذم والتحقير، وليس فيها من لم يذق مرارة فراق الأحباب ، وفلذات الأكباد. . فقال :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
وما تسع الأزمان علمي بأمرها ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي
وما الدهر أهلٌ ان تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه الى النسل

وتأثر شعراؤنا في العصر الحديث بأسلافهم في جميع فنون الشعر، وحاولوا محاكاتهم في كل فن، ورأينا من بينهم من أجاد في العزاء عن الأبناء، بل نلمح فيه سيرا على هدى المتنبي كقول اسماعيل صبري يعزي يوسف سابا عن فقد نجله سنة ١٩١٢م(٢) فيقول:(٣)

---

(١) ديوان المتنبي جـ٣ ص ١٧٠ ـ ١٧٩ دار الكتاب العربي بيروت باشراف عبد الرحمن البرقوقي سنة ١٩٧٠.

(٢) يوسف سابا باشا كان وزيرا للمالية المصرية من سنة ١٩١٠ حتى ١٩١٢ وتوفى أحد ولديه واسمه فريد فتأثر لذلك تأثرا شديدا واستقال من منصبه . وتوفى سابا سنة ١٩٢٤ م.

(٣) انظر ديوان اسماعيل صبري ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

«سابا» اتق الله وخل الأسى | لجاهل يعذر، في جهله
لا تكثرت بالرزء وانهض به | فالرأي كل الرأي في حمله
مثلك من يلجأ - إن راعه | يوم بمكروهٍ - الى عقله
«سابا».. ابك.. لكن كالحكيم الذي | يخافُ أن يطعن في نبله
واصبر فكم من جزع أكمل | من صحة المرء ومن فضله
فالليث لا تنسيه احزانه | مقامه إن ضيم في شبله

وله قصيدة أخرى في هذا الموضوع أيضا يعزي فيها الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» في وفاة نجله «عمر» سنة ١٩٠٨م يقول فيها:(١)

يا مالىء العين نورا والفؤاد هوى | والبيت انسا تمَهَّل أيها القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به | والزم مكانك لا يحلل به الكدر
في الحي قلبان باتا يا نعيمهما | وفيهما - اذ قضيت - النار تستعر
وأعين أربعٌ تبكي عليك أسىً | ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانةً في البيت واحدةً | يروح فيها ويغدو نفحها العطر
ما كان فيشك في الأحياء مختصراً | الا كما عاش في اكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعةً | في ذمة القبر بعد الله يا «عمرُ»

وأما شوقي - في عزائه للدكتور محمد حسين هيكل في فقد وحيده سنة ١٩٣٠م - فقد نقلنا الى فكر المتنبي وحكمته وعظمته وأسلوبه في عزاء سيف الدولة الحمداني عند فقد ولده،.. حيث استهل قصيدته بالبكاء والأنين على الفقيد - كما فعل سلفه - ثم أخذ يبين أن هذا هو دين الحياة ومذهبها، فلا بقاء فيها لأحد وان جل وعظم.. فقال:(٢)

الضلوع تتقد | والدُّموع تطَّرد
أيها الشجى أفق | من عناء ما تجد
قد جرت لغايتها | عبرةٌ لها أمد
كل مسرف جزعاً | أو بكا سيقتصد

(١) ديوان اسماعيل صبري ص ٢١٧.
(٢) الشوقيات جـ٣ ص ٥٩ - ٦١.

والـزمـان سـنـتـه في الـسـلو يجـتـهـد
قـل لـشـاكـلين مـشى في قـواهمـا الـكـمـد
لم يـعـاف قـبـلكـما والـدُ، ولا ولـد
كـلُنـا إلـيـه غـداً لـيس بـالـبـعـيـد غدُ

* * *

الـبـنـون هـم دمـنـا والحـيـاة والـورد
جـرحهم إذا انـتـزعـوا لا تـلمـه الـضـمـد
الـعـزاء لـيس لـه آسـيـا، ولا الجلد

ثم اتجه الى بيان صفات والد الفقيد وأنه أجدر الناس بالصبر والتأسي لأن هذه سنة الحياة ، ولا راد لقضاء الله قال :(١)

قُـل «لهـيكـلٍ» كـلما مـن ورائـهـا رشـد
أنـت لـيـث معـركـة وهـو صـارم فـرد
والـسـيـوف نـخـوتهـا في الـوطـيس تـتـقـد
أنـت نـاقـد أرب والأريـب يـنـتـقـد
مـا تـقـول في قـدرٍ بـعض سـنـهِ الأبـدُ؟
وهـو في الحـيـاة عـلى كـل خـطوةٍ رصـد
يـعـثر الأنـام بـه إن سـعـوا وإن قعـدوا
يـنـزل الـرجـال عـلى حـكـمـه وان مجـدوا
الـقـضـاء مـعـضـلةٌ لم يحـلهـا أحـد
كـلما نـقـضـت لهـا عـقـدة بـدت عـقـدْ
اتـعـبـت مـعـالجـهـا واسـتـراح مـعـتـقـدُ
عــالَمٌ مـدبـرهُ بـالـبـقـاء مـنـفـردُ

ودواوين الشعر العربي قديما وحديثا حافلة بشعر العزاء عن الأبناء، وفيها تشابه كبير بين معظم الشعراء في المعاني والأسلوب والفكرة :

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٥٩ ـ ٦١.

أما العزاء عن البنات فهو نادر، خاصة في العصور الأولى ولا غرابة في ذلك، فعرب الجاهلية كانوا يتوارون اذا ما رزقوا بالبنات، وكانوا يتصورون أنهن مصدر العار والشنار فيسرعون في وأدهن قبل النمو والكمال، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هـون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون﴾[1]

ثم انتقل هذا الأثر الى شعراء العصور الأولى بعد الاسلام فوجدناهم يتحرجون في العزاء عن البنات، ولا يهتمون في أشعارهم بـالمرأة الا في الغزل، وهناك بعض القصائد النادرة في العزاء عن البنات وهي تتسم بهذه الروح وان خرج بعضها عنها حين تكون المتوفاة بنت عظيم، ويكون حزن أبيها عليها شديدا كما رأينا في عزاء أبي العتاهية للخليفة المهدي في فقد احدى بناته وقد حزن عليها حزناً شديداً حيث يقول:[2]

ما للجديدين لا يلى اختـلافهما ... وكـلُّ غضٍّ جديـدٍ فيهـما بالي
يا من سلا عن حبيبٍ بعد ميتته ... كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي
كـأن كُـلَّ نعيمٍ أنت ذائـقـهُ ... من لذة العيش يحكي لَمعَةَ الآل
لا تلعبن بك الدُّنيا وأنت ترى ... مـا شئت من عبرٍ فيهـا وأمثال
ما حيلة الموت الا كل صالحة ... أولا فـما حيلةٌ فيهـا لمحتـال

وأبو العتاهية معروف عنه الاتجاه الى التزهيد في الحياة، وتقبل مصائبها

---

(١) الآية ٥٩ من سورة « النحل ».

(٢) ديوان أبي العتاهية ص ٣٢٨، ٣٢٩: ويروى عن أبي العتاهية في هذا العزاء قال: ماتت بنت المهدي فحزن عليها حزنا شديدا حتى امتنع عن الطعام والشارب، فقلت أبياتا أعزيه فيها فوافيته وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول: لا بد من الصبر على ما لا بد منه، ولئن سلونا عمن فقدنا ليسلون عنا من يفقدنا، وما يأتي الليل والنهار على شيء الا أبلياه، فلما سمعت هذا منه قلت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أنشدك؟ قال: هات: فأنشدته ما للجديدين فقال لي: أحسنت ويحك وأصبت ما في نفسي ووعظت وأوجزت، ثم أمر لي لكل بيت بألف درهم.

لأنها في نظره مخبة كلها ، وعلى المرء أن يقبلها بما فيها، حتى يرحل عنها ، وأن يحرص دائما على الاعداد ليوم الرحيل لأنه آت لا ريب فيه ، وفي عزائه هذا لم يخرج عن هذه المعاني، ولم يتطرق الى مدح الفتاة أو ذكر محاسنها أو البكاء عليها كما هي قاعدة الشعراء في الرثاء أو العزاء.

أما البحتري فقد وجدنا روح الجاهلية تسري في شعره عندما أراد أن يعزي أبا نهشل محمد بن حميد بن عبدالحميد إلطوسي أحد بني حميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنة له ماتت فبدل أن يذكر محاسن البنت وصفاتها ويبكي عليها كأهلها ، يتجه الى مواساة أبيها بتذكيره بأنها ليست من أصحاب السيف واللواء، وأن مساوىء المرأة كثيرة ، فهي لا تنازل الأبطال، وقد تلد الأعداء، وتنقل المال الموروث من بيت أبيها الى الغرباء، فموتها اذن ليس فيه حزن ولا عزاء، وكل امرأة حرية بالموت، ويقول ان قيس بن عاصم الجاهلي كان محقا في وأد بناته، والله تعالى لم يعدهن في زينة الدنيا حين قال عز وجل ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[1].

ولا أكاد أتصور أن البحتري كان غافلا عن أن الجمع هنا يشمل الذكور والاناث ، لأن الجمع لهما معا يغلب فيه التذكير. وقد رأينا في قصيدته أيضا ادعاء أن العرب لا تنسب الى الأمهات، وهذا غير صحيح فكم من قبيلة تنتسب الى امرأة، وكم من رجال أصحاب جاه وسلطان انتسبوا الى أمهاتهم ، ولكنها روح الجاهلية انتقلت الى الشاعر العباسي العظيم، وتقمصته فلم يستطع الخلاص منها حتى تحول عزاؤه الى هجاء للمرأة، وتصغير لشأنها، وتبعه في ذلك بعض الشعراء العباسيين ، ومما قاله البحتري في هذا العزاء [2].

يا أبا القاسم المقسم في المجـ	ـد وفي الجـود والندى أجـزاء
الأسى واجبٌ عـلى الحر إمـا	نـيـةً حـرةً وإمـا ريـاء
أتبكي من لا ينـازل بـالسيـ	ـف مشيحـاً ولا يهـزُّ اللواء

(١) الآية ٤٦ من سورة «الكهف».
(٢) ديوان البحتري جـ١ ص ٢٨، ٢٩.

والفتى من رأى القبور لمن طا ب بـه من بنـاتـه أكـفـاء
لسن من «زينة» الحياة لعد الله منهـا الأمـوال والأبـنـاء
قد ولدن الأعداء قدماً وورثـن التـلاد الأقـاصي البعـداء
لم يئـد تـربهـنّ قـيس تميـم عيـلـةً بـل حـميـةً وابـاء
وتغشى مهلهـل الـذل فيهـن وقـد أعـطى الأديم حيـاء
وشقيق بن فاتكٍ حذر العا ر عليهنّ فارق الدهناء
وتلفت إلى القبائل فانظرو امهات ينسبن أم آباء؟
واستزل الشيطان آدم في الجنة لمـا أغـرى بـه حـوّاء
ولعمري ما العجـز عندي إلاّ أن تبيت الرجالُ تبكي النّساء

ولكن العصر الحديث عرف مكانة المرأة، وأعطاها حقوقها في العمل والعلم والسياسة، وأصبحت ندا قويا للرجل في كل ميادين الحياة ، وتحولت مشاركتها للرجل في البيت الى مشاركة كاملة في الفكر والكفاح والجهاد، وعرف الشعراء لها هذه المكانة فبكوها مجاهدة ، ومفكرة. وعالمة، وشاعرة ، وأما ، وأختا، وزوجة ، وابنة . وحول هذا كله وجدنا قصائد للشعراء في العصر الحديث.

ولقد كانت تعزيتهم في البنات مختلفة كل الاختلاف عما كان عند أسلافهم من شعراء العصور الأولى فحين ماتت ابنة البارودي عزاه فيها حافظ وشوقي بما يليق بمكانها بين أهلها ، وافتنا في الثناء عليها وبيان أنها زهرة رحلت عن الدنيا، وكل الناس عنها راحلون ، ومما قاله حافظ:(١)

وديـعـةٌ ردت الى ربهـا ومسالـك الأرواح أولى بهـا
ألم يكن صبـرك في بعـدهـا يـربو عـلى شكـرك في قـربهـا

وقال أيضاً:

يا بنت «محمود» يعزّ على الورى لمس التراب لجسمك المنهوك

(١) ديوان حافظ جـ٢ ص ٢٤٦ نشر محمد أمين دمج بيروت ١٩٦٩ م.

تركوا شبابك فيه نهباً للبلى واهاً لغض شبابك المتروك
وحثوه فوق سناك يا شمس الضحى فبكى له بدر السماء أخوكِ
هذا التراب ـ وأنتِ أعلم ـ ملتقى هذا الورى من سوقة وملوكِ
هل أنت الا بين جنبيْ ماجدٍ صعب الشكيمة للخطوب ضحوك
يغضي بحضرته الزمان فيلتقي عــزُّ المليـك وذلـةُ الممـلُوكِ

وأما شوقي فكان أكثر ألما وأطول نفسا في عزائه للشاعر الكبير عند فقد كريمته خاصة أن موتها جاء أثناء زفاف شقيقتها. لذلك لون قصيدته بالعبرة والعظة. وأفاض في معاني المواساة والصبر فقال :(١)

أحيثُ تـلوح المنى تـأفـل؟ كفى عـظة أيهـا المنـزل!
حـلّيت الحيـاة وحـالاتهـا فهـلا تخطيت مـا تنقـل ؟
امن جنـح ليـل إلى فجـره حمى يـزدهي، وحمى يعطل؟
أجـاب النعيُّ لديـك البشير وذاق بكـأسيهـا المحفـل

ثم قال :

ويا صبر «سامي» بلغت المدى ويا قلبه السـهل، كم تحمل؟
لقد زدت من رقةٍ كالصراط ودون صـلابتـك الجنـدلُ
يمُرُّ عليك خليط الخطوب ويجتـازك الخفُّ والمـثقـلُ
ويا رجل الحلم ، خذ بالرضا فـذلـك مـن متـق أجمـل
أتحسب شهـداً إنـاء الـزمـان وطينتـه الصـاب والحنـظل؟

ويصف عظمة أبيها وصبره على المكاره ، وقوة تحمله فيقول :

ألم تـكـن المـلك في عـزه وبـاعُـك من بـاعـه أطـول؟
وقولك من فوق قول الرجال وفعلك من فعلهم أنبـل ؟
ستعـرف دنياك من سـاومت وأن وقـارك لا يـبـدل
كأنك «شمشون» هذي الحياة وكـل حـوادثـهـا هـكـيـل

وتوفيت ابنة الشيخ على يوسف صاحب «المؤيد» فعزاه فيها بأجمل العزاء

---

(١) الشوقيات جـ ٣ ص ١١٤، ١١٥.

الشاعر الكبير اسماعيل صبري ، ونلمح في معانيه نغمة أبي العتاهية وزهده وحكم المتنبي وفصاحته .. حيث قال:(١)

هي الدُّنيا وإن جادت بخيله | يد الحرمان في يدها المنيلهْ
سواءٌ من يعيش الألف فيها | ومن أيامه فيها قليلة
لئن قصرت بمن تهوى الليالي | فأن فتوخ والدها طويلة
أأستاذ «المؤيد» هل أعزي | فجهدي اليوم تعزية جميلة
فما في لوعة الآباء شكٌ | ولا في ذاهب الأبناء حيلة
وأنت المرء ان اخطاك نسلٌ | فنسلك بيننا الخدم الجليلة
تمناك النجوم أبا، وتأبى | شريكاً في أبوتك الفضيلة

ولما توفيت ابنة الشاعر اسماعيل صبري الذي كان يعزي بالأمس في ابنة الشيخ علي يوسف عزاه ولي الدين يكن بقصيدة نثر فيها قروحه وجروحه، حيث كان قد وارى ثاني أولاده الثرى قبل موت ابنة اسماعيل صبري بقليل.. فقال:(٢)

كلما شئت أن ازورك يا اسما | عيل عاق السقام عما أشاء
ألفتني الأوجاع حتى كأني | وطنٌ لا يمل فيه الثواء
حمل الداء بامتثال كلانا | وصبرنا فزادت الأدواء
فكأن امتثالنا كان حمداً | وكأن الصبر الجميل وضاءُ

* * *

من يعزي فخر الرياسة إسما | عيل عني؟ فقد نَبَا بي العزاءُ
ذقت ذا الثكل قبله ثم أمسى | لي شريكاً فنحن فيه سواء
وبكى عندما بكيت فجارى الـ | ـدمع دمعٌ ، شعر العيون البكاء
ودموع الباكين تنضب أحيا | نا وتجري دموعها الشعراء
رحم الله من ثوت وحبا البا | قي أجراً وللرئيس البقاء

---

(١) ديوان اسماعيل صبري ص ٢٠٣.
(٢) ديوان ولي الدين يكن ص ٧٣، ٧٤.

وقد أوردنا قبل ذلك بعضا من رثاء الأخوات، وكيف أن شعراء العرب قديما وحديثا تطرقوا اليه ، ولكنه ليس بالكثرة التي تناولوا بها رثاء الأخوة وندبهم والبكاء عليهم ، وكما رأينا المتنبي يعزي سيف الدولة الحمداني في وفاة أمه سنة ٣٣٧ هـ وجدنا أيضا اسماعيل صبري يعزي السلطان حسين كامل في وفاة أمه سنة ١٩١٦م فيقول:[١]

أيصيخ لي الملك الهمام قليلاً ... إن قلت صبراً مرة فأقولا
من لي بأن أدلى إليه بسلوة ... فأعدُّ فضلاً ما أعدُّ فضولا
وأبيت مغتبطاً بأني لم أدع ... في ذلك القلب الكبير غليلا
أحسين لُذ بالصبر معتصماً به ... حتى ترى أثر الجميل جميلا
نعم الحليف يشد أزر حليفه ... في الخطب ان خذل الخليل خليلا
مهلا فما استثنى القضاء من الردى ... أحداً وما أغنى البكاء فتيلا
لو أنه استثنى لبات جميله ... وقفا عليكم «آل إسماعيلا»
إن تقض أمُّك نحبها فلقد رأت ... أعلام واحدها تُظلُّ النيلا
وحوت مفاخر لم تحزها قبلها ... خير العقائل معشراً وقبيلا
وتعهد العصرين عصري مجدها ... ملكان طابا محتداً وأصولا
وأقر عينيها بمصرٍ موكبٌ ... يرتدُّ طرف الدهر عنه كليلا

ثم يقول : -

عوَّذت بيتك يا بن خير مملِّكٍ ... من أن يقيم به الحداد طويلا
لا تذر إلا أدمُعاً معدودةً ... فالبر أصدق أن يقيم دليلا
صن دمعك الغالي فدمع عيوننا ... كفءٌ لحزنك إن رضيت بديلا
ودع الهموم فحسب قلبك أنه ... أمسى بمصر متيماً مشغولا

وتقديرا للمرأة وعرفانا لفضلها وحنانها بكى شوقي جدته على الرغم من أنها عمرت وعاشت حياة طويلة ملؤها الرخاء والنعيم فقال:[٢]

---

(١) ديوان اسماعيل صبري ص ٢٢٤ - ٢٢٦.
(٢) الشوقيات جـ٣ ص ٣٨ - ٤٠

نُروع ما نروع، ثمَّ نرمى بسهم من يد المقدور آتي
صلاة الله يا «تمزار» تجزي ثراك عن التّلاوة والصَّلاةِ
وعن تسعين عاماً كنت فيها مِثال المحسنات الفُضْلياتِ
بررت المؤمنات، فقال كُلٌّ لعلَّكِ أنت أم المؤمناتِ
وكانت في الفضائل باقيات وأنت اليوم كلُّ الباقياتِ
تبنَّاكِ الملوك وكنتِ مِنْهم بمنزلة البنين أو البَناتِ
يُظلُّون المناقبَ منكِ شتّى ويؤوون التُّقى والصالِحاتِ

وحافظ ابراهيم يمجد ملك حفني ناصف «باحثة البادية» في رثائه لها، ويذكر كفاحها وجهادها من أجل حقوق المرأة، ودوريها العلمي والفكري على الصعيد الشعبي وما قامت به في ميدان الأدب واللغة[1] فيقول:[2]

«ملك»[3] النُّهى لا تبعدي فالخلق في الدنيا سيَرْ
إني أرى لك سيرةً كالرَّوض أرَّجهُ الزهرْ
ربِّ أبوك الناشئيـ ـن فعاش محمود الأثر
وسلكت أنت سبيلهُ في الناشئاتِ من الصغرْ
ربيتهنَّ على الفضيـ ـلة والطُّهارة والخفرْ
وعلى اتّباع شريعةٍ نزلتْ بها آيُ السُّور
لله درُّكِ أن نثر ت ودرُّ «حفنى» ان نثر
قد كنتِ زوجاً طيِّبةً في البدو عاشت والحضرْ
سادت على أهل القصو ر وسوَّدت أهل الوبر

(١) انظر باحثة البادية لمي زيادة ص ٢٣ ـ ٣٧، ٥٢ وما بعدها مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٢٥، وباقات من حدائق مي لفاروق سعد ص ٣٥٧ ـ ٣٦، ٥٥٠ ـ ٥٥٢.
(٢) ديوان حافظ جـ ٢ ص ١٩٣ ـ ١٩٦
(٣) (ملك) هي السيدة ملك حفني ناصف ولدت سنة ١٨٨٦ م وتوفيت سنة ١٩١٨ م وكانت من فضليات الكاتبات والباحثات وأطلق عليها لقب باحثة البادية ـ وقامت بدور كبير في الدعاية الى نهضة المرأة المصرية بعد قاسم أمين، ولها مقالات كثيرة طبعت كلها في كتاب سمته «النسائيات» وسلسلة محاضرات ألقتها في إدارة صحيفة «الجريدة» التي كان يصدرها حزب الأمة.

بـالعلم حلّت صـدرهـا لا بـالـلآلىء والـدُّرر
فـانظر شمـائل فكـرهـا بـالله يـوم «المـؤتَمـرْ»
واقـرأ «محاضـرة الجـريـ ـدة» والمـقـالات الـغـرزْ
وارجـع إلى مـا أودعـت عـنـد المجـلاّتِ الـكـبَـرْ
تـعـلم بـأنـا قـد فـقـدْ نـا خـيـر ربـاتِ الفِكَـرْ

ويصور حزن أهلها وحزن الناس عليها فيقول:

لا كـان يـومـك يـوم لا ح الحـزن مختلف الصُّورْ
علمت هـاتـفـة القـصـو ر نـواح هـاتفـة الشجـرْ
وتـركت أتـراب الصبـا حـزنـا يقـطعن الـشعـرْ
يبكـين عهـدك في الصبـا ح وفي المسـاء وفي السَّحرْ
صـبـرا أبـا «مـلك» فـا ن البـاقيات لمن صبـرْ
ويـقـدر صـبـر المبـتـلى طـول المصيبـة والقـصـرْ

وإذا كانت نظرة الشعراء في العصر الحديث الى البنات قد اختلفت عن نظرة الشعراء في العصور الأولى، وأصبح شعراؤنا يرون فيها ركنا قويا في معيشتنا المادية والعقلية، ويضعونها في المكان اللائق بها بين أفراد الأسرة والمجتمع، ويرون فيها سندا ومعينا للأمة في السلم والحرب، وأنها جديرة بالحب والتقدير والوفاء كالأبناء سواء بسواء... فان الشعراء قديما وحديثا اهتموا بالأخوات والأمهات ونظموا فيهن الدرر في المدائح والمراثي، وبكوا عليهن بكاءهم على الآباء والاخوة وعزوا فيهن أجلّ العزاء وأروعه.

وها هو ذا المتنبي يعزي سيف الدولة الحمداني في وفاة أخته فيبدع في مواساته، وفي التذكير بغدر الموت، وطيه لخير النساء.. حيث يقول:[1]

يا أختَ خير أخٍ يا بنت خير أب كنايةً بهما عن أشرف النَّسب
أجِلُّ قـدرك أن تسمى مؤبَّنـة ومن يصفك فقد سماك للعرب

(1) ديوان المتنبي جـ٢ ص ٤٦١ - ٤٦٦ شرح ناصيف اليازجي مصر سنة ١٨٨٧ م وتوفيت أخت سيف الدولة سنة ٣٥٢ هـ.

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت | كريمةً غير أنثى العقل والحسب
وإن تكُنْ تغلب الغلباء عنصرها | فإن في الخمر معنىً ليس في العنب
فليت طالعة الشمسين غائبةً | وليت غائبة الشمسين لم تغب
وليت عين التي آب النهار بها | فداءُ عين التي زالت ولم تؤب
قد كان كُلُّ حجابٍ دون رؤيتها | فما قنعت لها يا أرضُ بالحجب
ولا رأيت عيون الإنس تدركها | فهل حسدت عليها أعينَ الشُّهُبِ؟

فهو يقول: انها ـ وان كانت أنثى في خلقتها وتكوينها ـ أعظم عقلا وشرفا من الرجال، وان يكن أصلها عريقا ونسبها عظيما، فان محاسنها وشيمها الطيبة أعظم وأروع، ويتمنى لو أن الشمس غابت واختفت ولم تغب أخت سيف الدولة، أو تختف من سماء عزتها ومجدها.

وهذا يدل على أن المتنبي عظيم شعراء عصره كانت نظرته للمرأة نظرة تقدير واحترام، وأنه يختلف في رأيه فيها عن البحتري وكشاجم وغيرهما من شعراء العصر العباسي الذين ظلوا متأثرين بالنظرة الجاهلية.

وقد رأينا للمتنبي أيضا تعزية لسيف الدولة عند وفاة أمه، فيها من التقدير والاجلال للمرأة ما لا يقل عن قوله في عزاء أخته، وهي من قصائده الطوال التي حفلت بأعظم المعاني وأروعها، والتي صور فيها الحياة والموت أعظم تصوير. بدأها بوصف سطوة الحياة وسلطانها على الانسان، وبينما هو يعد السيوف والرماح لمنازلة الأعداء، تخرمه المنون دون قتال أو نزال، ومع حدوث هذا كل يوم وفي كل عصر يعشق الناس الحياة ويتكالبون عليها، ويتهافتون على الزائل منها من مال وجاه وسلطان، مع أنها لا تكف عن المحن والمصائب في هذه الأشياء، وتتوالى محنها، ويزداد الناس تمسكا بها، ثم يوجه عزاءه الى سيف الدولة، ويصف أمه بأجمل الصفات وأنبلها، ثم يخلص الى عبرة الموت ويذكر سيف الدولة بها فيقول:[1]

يُدفن بعضنا بعضاً وتمشي | أواخرنا على هام الأوالي
وكم عين مقبَّلة النواحي | كحيل بالجنادل والرمال

(١) ديوان المتنبي جـ٣ ص ١٤٠ ـ ١٥١ وتوفيت والدة سيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ.

ومغضٍ كانَ لا يغضي لخطبٍ وبالٍ كان يفكر في الهزال
أسيف الدولة استنجد بصبرٍ وكيف بمثل صبرك للجبال
فأنتَ تُعلم الناس التعزي وخوض الموت في الحرب السجال
وحالات الزمان عليك شتى وحالُكَ واحِدٌ في كُلِّ حالِ

ويستطرد في ذكر عزائم سيف الدولة وقدراته الخارقة في خوض الحروب ومنازلة الأبطال، وأن الناس يتعلمون منه الصبر على اقتحام الموت، ويلتمسون منه العزاء في محن الدهر، ويتعرفون منه كيف يواجهون تلون الزمان كالحرباء، وأنه في ثباته وصبره على الشدائد مثال نادر للرجال والأبطال ولا يمكن لمصيبة مهما عظم قدرها أن تفل من عزيمته أو تغير من سحنته، ثم يعود الى وصف أمه بأعظم الصفات ويفضلها على الرجال ، فهي الشمس في ضيائها وروعتها ، ولا يعيبها أنها مؤنثة، لأن الهلال ـ وان كان مذكرا ـ يستمد ضوءه منها. . فيقول :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلالِ
وأفجعُ مَنْ فقدنا مَنْ وجدنا قبيلَ الفقد مفقُودَ المِثالِ

ولا شك أن هذا التقدير والثناء من المتنبي لوالدة سيف الدولة ليس من باب التقرب الى العظماء والوقوف على أعتابهم بما يليق ولو كان مخالفا لمنهج الشاعر وأسلوبه في الحياة لأن ذلك لم يكن طبع المتنبي أو أسلوبه في القول، فقد كان معروفا عنه عزته واباءه، وعدم مخالفة قوله لما في نفسه ، وقد عانى من ذلك كثيرا .

وفي عصرنا الحديث وجدنا الشعراء أكثر تقديرا للمرأة وأعظم احتفالا بها ، وغدت نظرتهم للبنات لا تختلف عن نظرتهم في البنين ، بل انهم رأوا فيها مصدر الجمال والحنان والالهام ، وهذا هو العقاد الذي نعرف جميعا رأيه في المرأة يرثي طفلة ويبكي عليها كما لم يبك على الرجال ، ويطلب منها أن تعود من قبرها الى الحياة ، لأنها كانت ملء قلبه وبصره وأن احتباس المقابر صعب على الصغار. . . فيقول:(١)

(١) ديوان العقاد(يقظة الصباح) ص ٥٦ ، ٥٧ مطبعة وحدة الصيانة باسوان سنة ١٩٦٧ .

زهـرةً كـان وجـهُـهَـا نُـور قـلبي ونـاظـري
حملتـهـا يـد الـردى حـمـل مـن لم يحـاذِرُ
فـتـوارت ولم يـزل عـرفها[1] ملءَ خاطري

* * *

يـا ضيـاءً تـضـمـنَّـتـه بـطونُ الـدّيـاجـرِ
قـد أجنـوك في الثـرى يـا جـنـين الضـمـائِـرِ
فـالزمي الـرَّمس حين لا حـلم في عـيـن بـاصـر
فـإذا أقـبـل الـدجى وغـفـا كـلُّ سـاهـرِ
فـاطـرقينـا مـع الكـرى حُلُماً غـيـر نـافِـرِ
وصـلي عيشـكِ الـذي كـان أحـلام سـادِرِ
وامـرحي في صـدورنـا واضحكي في الـسـرائِـرِ
ثـم عـودي إذا الصبـا حُ تجـلى فـبـاكـري
إنَّ صعبـاً عـلى الصغـا رِ احـتـبـاسُ المـقـابـرِ

ولا نكون مغالين اذا قلنا ان معاني الرثاء المختلفة من نـدب وتأبين وعزاء، قد اجتمعت عند شعراء العربية في مختلف العصور، مع رقة بالغة في الحس ، وفيض قوي في العواطف ، ودقة تامة في الأداء شملت كل جوانب الحياة والموت ، وتلونت بألوان شديدة التأثير في النفوس والقلوب وكانوا على بصيرة بما يجب أن يقال عند كل موقف، فلموت الأهل والأصدقاء والأحباب نغمة ، ولموت الزعماء والقادة والعلماء والمفكرين أسلوب، وللعزاء وتخفيف البلاء ضرب، ولكنهم في هذا كله عنوا عناية فائقة بتحليل آلامهم ، والغوص في بلايا الانسانية وأوصابها ازاء هواتف الموت ورقدته الأبدية ، وقـد ساقهم بعض المواقف الى ربط الموت والحياة معا ، والعزاء والتهنئة في آن واحـد فأبدعوا حتى ليقع القارىء في حيرة أيريذني الشاعر أن أبكي أم أضحك ؟. أهو في نحيب وشنجن من الموت أم في سرور وهناءة مع الحياة؟ وأغلب ما يكون ذلك عند موت الملوك والخلفاء، وتولي أولادهم مكانهم ، فهم يرثون

---

(١) رائحتها .

الراحل ويعزون أهله فيه ، ويذكرون بمجده وجلده وكفاحه . وفي الوقت نفسه يهنئون خليفته الجديد الذي أصبح محط آمال الناس ومسرى عيونهم ، اليه ترجى الغايات وبه تكمل المسيرة ، وفي عهده ترفع الرايات ، ويتم الشرف والمجد.

ولقد كان أول عهد للشعراء بمثل هذا الموقف عند موت معاوية بن أبي سفيان وتولي ابنه يزيد الخلافة من بعده ، فمن المعروف أن الخلافة قبل ذلك لم تكن وقفاً على أهل بيت واحد حتى يضطر الشعراء للعزاء والتهنئة ، وانما كانت الخلافة والامارة والولاية لمن هو أجدر بها من بين المسلمين جميعا ، فلما انتقلت الى بني أمية أوصى معاوية بها لابنه ، وحولت بذلك الى ملك يتوارث واحتار الشعراء ماذا يقولون ليزيد، أيرثون أباه ويبكون عليه ، أم يهنئونه بالملك والسلطان . وكان أول من تقدم لذلك وبرع فيه الشاعر الأموي عبد الله بن همام السلولي ، فقد عزى يزيدا في وفاة أبيه بأحسن العزاء، وهنأه في الوقت نفسه بالملك ، وكان في الحالتين دقيق الحس ، رقيق المشاعر ، قوي الأداء. . . وذلك حيث قال:[1]

اصبر يزيد فقد فارقت ذامِقَةٍ … واشكر حباء الذي بالملك حاباكا
لارزء أعظم في الأقوام قد علموا … مما رزئت ولا عقبى لعُقباكا
أصبحت راعي هذا الخلق كلهم … فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفي معاوية الباقي لنا خلفٌ … إذا بقيت فلا نسمع بمنعاكا

ولأبي تمام الشاعر العباسي المعروف قصيدة طويلة يعزي فيها الواثق ابن المعتصم الخليفة العباسي في وفاة والده ، ويهنئه بتوليه الخلافة من بعده وقد أبدع في تصويره احزان الناس على الراحل ، وفي الاشادة بمناقبه ومحامده، وزاد روعة في الانتقال الى تهنئة الخليفة الجديد والدعاء له بالفوز والظفر، وكأن الشاعر يريد أن يقول في معاني القصيدة مكتملة ، ان الراحل كان عظيما، ومصيبتنا فيه كبيرة الا أن الأمة باقية وابنه خير سند لها ، ولن يضيع مجدها

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ٢ ص ٦٣٣، ٦٣٤ تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ـ القاهرة احياء الكتب العربية سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م.

مادامت العدالة في أسرته وان الخليفة الجديد أرسلته العناية الالهية لتجبر به الأمة ، ويتم لها صلاحها واستقامتها. ومما قاله أبو تمام في هذا:(١)

هدمت صروف الموت أرفع حائِطٍ ... ضُربت دعائمه على الاسلام
دخلت على ملك الملوك رواقة ... وتشزنت لمقوم القوام
فلسورة الأنفال في ميراثهِ ... آثارها ولسورة الأنعام
مادام «هارون»(٢) الخليفة فالهدى ... في عبطةٍ موصولةٍ بدوام
لله أي حياةٍ انبعثت لنا ... يوم الخميس وبعد أي حمام ؟
تلك الرزية لا رزية مثلها ... والقسم ليس كسائر الأقسام
ما إن رأى الأقوام شمساً قبلها ... أفلت فلم تعقبهُمُ بظلامِ
أكرم بيومهم الذي ملكتهم ... في صدره وبعامهم من عام
لو لم يكن بدعاً لقد نصبوا له ... سمة يبين بها من الأعوام
شرحت بدولتك الصدور وأصبحت ... خُشُعُ العيونِ إليكَ وهي سوامي

وكان الشاعر الأندلسي ابن زيدون مبرزا في السياسة والرياسة كما كان مبرزا في الشعر والأدب ، وكان ذا حظوة عند ملوك قرطبة(٣) فلما توفي «المعتضد» أبو الحزم جهور ملك قرطبة ، وخلفه ابنه أبو الوليد «المعتمد» وكان صديقا للشاعر، نظم قصيدة رائعة يعزي فيها صديقه في وفاة والده الملك العظيم ، ويهنئه بتولي الأمر من بعده ، ويقول له ان غياب الشمس يعني ظهور القمر وذهاب المطر يعقبه بزوغ النبات ، وفيض البحار والأنهار بالخير وان اساءة الدهر البالغة بموت والدك العظيم ، أتبعها سريعا بالاعتذار والفعل الحسن بتوليك وبزوغ نجمك ، فأنت الفجر الذي محا الظلام المخيف ، والعلم الذي سيهتدي به الناس، ويقضي على كل متمرد مغرور ، ويستمر ابن زيدون في قصيدته حتى يحول لحظة الحزن الى سرور ، وصورة الشقاء الى

(١) ديوان أبي تمام جـ٣ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٩ بشرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠.
(٢) هارون الواثق هو ابن الخليفة المعتصم.
(٣) راجع ابن زيدون للدكتور شوقي ضيف (نوابغ الفكر العربي رقم٥) دراسة عنه وعن بيئته وأعماله . دار المعارف بمصر ط ثالثة بدون تاريخ.

سعادة وعتمة الظلام الى ضياء، وسوعد المأتم الى بياض عرض، فاليوم في نظره ـ وان بدا عابسا مكفهرا لم يلبث أن ضحك واستبشر بالأمل الجديد، والنور المرتقب، ومما قاله في هذا لموقف .(١)

ألم تَرَ أن الشمس قد ضمها القبرُ … وأن قد كفانا فقدها القمر البدر
وأن الحياة إن كان أقلع صوبه … فقد فاض للآمال في إثره البحرُ
إساءة دهرٍ أحسن الفعل بعدها … وذنب زمان جاء يتبعه العذرُ
فلا يتهنَ الكاشحون فما دجا … لنا الليل إلا ريثما طلع الفجرُ
فقل للحيارى قد بدا علم الهدى … وللطامع المغرور قد قضي الأمرُ
أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى … قلوبٌ مناها الصبر لو ساعد الصبر
دع الدهر يفجع بالذخائر أهله … فما لنفيسٍ مذ طواك الرَّدى قدرُ
تهون الرزايا بعد، وهي جليلةٌ … ويعرف، مذ فارقتنا الحادث النُّكْرُ
عزاءٌ فدتك النفس عنه فان ثوى … فإنَّك لا ألواني ولا الضرع الغُمْرُ
لك الخير، إني واثقٌ لك شاكرٌ … لمثني أياديك الَّتي كفرها الكفر
ومن يك للدُّنيا وللوفر سعيه … فتقريبك الدنيا ، وإقبالُك الوفر

ولا نستطيع أن نقول ان بيئة عربية أو دولة دون الأخرى برع الشعراء فيها ـ عن سواهم ـ في هذا الموقف ، وانما كانوا جميعا يشبهون حلقة متكاملة تدور فيها المعاني والأفكار الى غاية واحدة، ففي كل مكان في دنيا العرب نجد شعراء برعوا في هذا الموقف الصعب ، وأجادوا في المواساة والعزاء، وأطربوا في التهنئة والظفر، وحولوا الموقف من المأساة الى السلوى والفرح ، وجعلوا الناس بدل اليأس تستبشر وتفرح ، ولا شك أن في هذا تفننا وبراعة لا يحسنها الا فحول الشعراء وكبراؤهم، ولا يجيد القول فيه الا أصحاب البديهة اللماحة، والطبائع القوية، والشاعرية الفياضة.

ولابن نباتة أبيات يعزي بها السلطان الأفضل صاحب «حماة» في أبيه

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٣ ـ ٢٥ مع دراسة تفصيلية عن الشاعر بقلم نديم مرعشلي طبع الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت سنة ١٩٦٨م.

«المؤيد» ويهنئه بانتقال الملك اليه، وهي تدل على صدق نظرتنا في براعة الشاعر وقدراته وفصاحته . . وذلك حيث يقول: [1]

هَنَاءُ[2] محا ذاك العزاء المقدما   فما عبس المحزون حتى تبسما
ثُغُورُ ابتسام في ثغور مدامع   شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
سقى الغيث عنا تربة الملك الذي   عهدنا سجاياه أبرَّ وأكرما
ودامت يدُ النعمى على الملك الذي   تدانت له الدنيا وعزَّ به الحمى
مليكان: هذا قد هوى لضريحه   برغمي، وهذا للأسرَّة قد سما[3]
ودوحة ملك شادوي تكافأت   فغصن ذوى منها وآخر قد نما[4]
فقدنا لأعناق البرية مالكاً   وشمنا لأنواع الجميل مُتَمِّما
إذا الأفضل الملك اعتبرتَ مقامه   وجدت زمان الملك قد عاد مثلما
أعاد معاني البيت حتى حسبته   بوزن الثنا والحمد بيتاً منظما

ونجد من ذلك في العصر الحديث عند كبار الشعراء ما لا يقل جمالا وروعة عما كان عند أسلافهم العظماء في العصور الأولى، فاسماعيل صبري حين أراد العزاء في وفاة الخديوي توفيق، وتهنئة ابنه عباس الثاني بتولي الملك من بعده سنة ١٨٩٢م أبدع في وصف الحياة والموت، وارتفع في مواساته حتى جعل الحياة شيئا لا يؤبه له، ولا يبكي عليه فقال:[5]

نحن لله ـ ما لحيٍّ بقاءُ   وقصارى سوى الإله فناءُ
نحن لله راجعون فمن ما   ت ومن عاش ألف عام سواءُ
يفرح المرء في الصباح وما يعـ   ـلم ماذا يكنُّه الإمساءُ
ومتاعُ الدُّنيا قليلٌ وما يلـ   ـهو به المرءُ من حُطامٍ هَبَاءُ

---

(١) ديوان ابن نباته المصري ص ٤٢٩، ٤٣٠ طبع دار احياء التراث العربي بيروت سنة ١٩٧٠م.

(٢) هناء: لفظ مولد. . لم تعرفه العرب، والصواب: هناءة كما في جميع القواميس.

(٣) هذا استعمال مولد، وصوابه على رغمي

(٤) من شدا من العلم وغيره شدوا اذا أحسن منه ضربا، والمنسوب اليه: شاد بمعنى محسن.

(٥) ديوان اسماعيل صبري ص ١٩٨ ـ ٢٠١.

ثم يستطرد في وصف أهل أحزان الفقيد عليه ، وكيف يبكيه قصره، ومراتع صباه ، ومجالس أنسه وبهاه ، ويخلص من ذلك الى أن :

كُلّ خطب في جنب خطبك يا مـ ـصـر يرجى للنـاس فيه عـزاءُ

ثم يقول مهنئا عباسا بالملك ، وداعيا الناس الى الاستبشار به :

لا أعـزيكم، وأنّى لـقـولي أن تـعـزى بمثله الحكـماءُ
احمدوا الله في العشية والاصـ ـباح فالبؤس قد تلاه هناءُ[1]
إن يكن خرَّ من سمائكم بد رٌ «فعباسُكُمْ» بـه يستضـاءُ
قد أرنا «العباس» بعد أبيه كيفَ تلقى العظائمَ العظماءُ
ورث الملك عن أبيـه فلما قام بالأمـر دب فينا الـرجاءُ
واجتليناهُ طود مجد وسـوراً دار منه حـول البـلاد بنـاءُ
حبَّذا منه همة تترك الصعـ ـب ذلولاً وعـزَّةٌ قـعـسـاءُ
وثبـاتٍ في طبـه وثبـاتٍ لـلمعـالي وحـكمـةٍ وإبـاءُ
دام يكسو الزمان حسناً ويسدي أنعـما لا يشـوبهنَّ انتهـاءُ

وهذا شوقي يعزي في وفاة الحسين بن علي زعيم الحركة العربية التي بزغت سنة ١٩١٦م أبان الحرب العالمية الأولى لتطلب تحرير أصقاع الجزيرة من حكم الأتراك ، والذي توفي سنة ١٩٣١م وأحد بنيه يحكم العراق، والآخر يملك الأردن، فهو يعزي فيه ويهنىء ابنيه بالملك والسلطان، ويدعو لأسرته بالمجد والظفر وبقاء الجاه والملك فيقول:[2]

يا أبا العليـة البهاليـل، سل آ باءك الزهر، هل من الموت عاصم؟
ما الليالي إلاَّ قصارٌ، ولا الدُّنـ ـيا سوى ما رأيت أحلام نـائم
سنة أفرحت، وأخـرى أساءت لم يدم في النعيم والكرب حالم

* * *

المنـاحـات في ممـالـك أبنـا ئـك بـدريـةُ العـزاء قـوائم

---

(١) هذا خطأ أشرنا الى مثله قريبا في القصيدة السابقة.

(٢) الشوقيات جـ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥٣.

تلك «بغداد» في الدّموع وعيا ن «وراء السواد» والشام واجم
والحجاز النبيل ريعٌ مصلٍ من ربوع الهدى وآخر صائم
واشتركنا فمصر عبرى ولبنا ن سكوب العيون باكي الحمائم

ثم يهنىء أولاده بملكهم وسلطانهم فيقول:

قم تأمل بنيك في الشرق زين التـ ـاج، ملءُ السرير، نوع العواصم
الـزكيون عنصـرا مثل ابـرا هيم، والطيبون مثل القاسم
قد بنى الله بيتهم فهو باقٍ ما بنى الله ما له من هادم
دبروا الملك في العراق وفي الشا م، فسنوا الهدى، وردُّوا المظالم[1]
أمن الناس في ذراهم، وطابت عرب الأرض تحتهم والأعاجم
وبنـوا دولـة وراء فلسطـ ين، كعاب الهدى، فتاة العزائم[2]
ساسها بالأناة أروع كالدَّا خِلِ ماضي الجنان يقظان حازم

وإذا كان الرثاء والتأبين والعزاء في حقيقته تنفيسا عما في صدور الشعراء من آلام وأحزان، وعما في نفوس المنكوبين من وجد ولوعة وتعبير عن الضعف البشري ، وخضوع الانسان لأحكام القدر. فانه فوق ذلك يعد صياغة يرتقي فيها الشعراء بمعانيهم وأخيلتهم ليجعلوا رحلة الموت والفناء مقبولة لدى الناس، كما أن رحلة الحياة والكفاح وصية اليهم ، مع أن كليهما فوق ارادة الانسان ، وليس له في صنعهما فعل أو فلسفة أو تقدير ، ولا شك أن لعالمي الحياة والموت في كل ذهن صورتين تختلفان عن صورتيهما في سائر الأذهان، وليس هناك رجلان في هذه الدنيا يريان كلا منهما على مثال واحد. وقد ترى الرجلين يجلسان في حجرة واحدة وأحدهما يود لو أن روحه ذهبت من حلقومه لضيقه بالدنيا، وبغضه لها، والآخر يود لو يعمر أبد الدهر حبا في الدنيا وشوقا

---

(١) تولى ولده فيصل ملك سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى حين دخلها بجيشه ، ثم طرد منها تحت ضغط الجيوش الفرنسية ، ولكن الانجليز أرادوا انهاء الفتنة والتمرد في العراق ، فجاءوا به من منفاه في ايطاليه ونصبوه ملكا على العراق سنة ١٩٢٢ م.

(٢) يشير الى ظهور دولة شرق الأردن بقيادة الملك عبد الله نجل المتوفي وجد الملك حسين ملك الأردن الحالي.

اليها. وما ذلك الا لأن عالم كل منهما مختلف عن الآخر، فهو يراه من زاوية لا يراه منها الآخرون.

والشعراء كالناس أقدارا وأحلاما وأوهاما، ولكنهم يسبقونهم حسا وشعورا وخيالا، ولذلك كان تصويرهم لكل من الحياة والموت، تصويرا يزين الحياة حتى تعشق من البائسين، ويحسن الموت حتى يقبل من الملوك والعظماء...

وقد رأينا فيما عرضنا من رثاء وعزاء أن كل شاعر كان يعرض للحياة من جانب، وأما عند الموت فكل منهم يعرف ويقرأ أنه نهاية كل حي، وأن على الناس أن يفكروا دائما في هذا المصير الذي ينتظرهم، وأن يتجهزوا له ويعدوا زادهم اليه قبل أن تأزف الأزفة، ويأتي القضاء الذي لا مفر منه. وليست هذه النظرية وليدة الدين وفلسفته، وانما يرجع تاريخها الى أعمق أعماق البشرية، وقد عرف الشعراء الجاهليون، هذه الحقيقة ووقفوا منها مواقف مشابهة لشعراء العصور الاسلامية، وان كانت نظرتهم تتسم بالسطحية وعدم التعمق على عكس ما عرف عند من تأثروا بفلسفة الدين وأحكامه واتصلوا بالآداب والفلسفات الأخرى.

ومع هذا لا نستطيع أن نقول ان كل الشعراء أجادوا في نظرتهم للموت والحياة، ولكن منهم من نبغ في ذلك، واستطاع أن يجعل من الموت شيئا مقبولا ومحببا الى النفس، وذلك عن زهد وقناعة بأن ذلك هو المصير المحتوم وأن من العبث أن نشغل بسواه، وألا نعد أنفسنا له إعدادا يكفل سلامة الطريق وأمن الرحلة، وخوض المجهول.

وممن أجادوا في هذا الضرب أبو العتاهية ذلك الشاعر العباسي الذي امتلأ وجدانه باحتقار الحياة والزهد فيها، وأوقف شعره على ترغيب الناس في هذا الزهد وتذكيرهم بما ينتظرهم في عالم ما بعد الموت، وتبصيرهم بأن رحلة الحياة قصيرة، وأن بعدها هو الباقي الدائم، وأن نعيم الحياة لا قيمة له، لأن المنية تغدو على الناس وتروح، وكل فرد سيموت، ولو عمر ما عمر نوح، والموت هو النهاية والغاية، وسرعان ما تمحى الحياة، ولا يبقى للانسان الا صالح الأعمال.

وحين نقلب ديوانه نجده يضرب في معظمه على هذا الوتر وتنساق معانيه في هذا الاتجاه ، وترتبط مراثيه بذم الدنيا، وبيان أنها الى زوال ، وان كل ما ينال فيه من عز سيتحول الى ذلّ في القبر ووحشة وأن ما يشيد فيها من قصور سيحور الى خرائب وقفار ، وما أحقر الدنيا في نظره ، وما أضأل ما فيها سرور وأبهة وترف ونعيم .

ومن روائعه في ذلك قوله :[١]

الدهر يوعد فرقةً وزوالا ... وخطوبه لك تضرب الأمثالا
يا رب عيش كان يغبط اهله ... بنعيمه، قد قيل كان، فزالا
يا طالب الدنيا يثقل نفسه ... إن المخفَّ غداً لأحسنُ حالا
إنا لفي دارٍ نرى الأكثار لا ... يبقى لصاحبها، ولا الإقلالا

ثم يقول :

أأخيَّ إن الدار مدبرةٌ وان ... كنّا نرى ادبارها اقبالا
أأخي لا تجعل عليك لطالبٍ ... يتّبع العثرات منك، مقالا
فالمرء مطلوبٌ بمهجة نفسه ... طلبا يصرف حاله أحوالا
والمرءُ لا يرضى بشغلٍ واحدٍ ... حتى يولّدُ شغله أشغالا
والله أكرم من رجوت نواله ... والله أعظم من ينيلُ نوالا
ملك تواضعت الملوك لعزه ... وجلاله، سبحانه، وتعالى
لا شيء منه أدق لطف أحاطة ... بالعالمين ولا أجلُّ جلالا

وفي أحد مراثيه نراه ـ مع أنه يرثي ملكا وصاحب جاه وسلطان يقول: لا يغرن أحدا الغرور، ولا ما يعيش فيه من ترف ونعيم، فان ذلك سرعان ما تذبل ازهاره ، وتذوي نضارته، وتنتهي صولته، ويختفي جاهه، ويغيب سلطانه أمام الموت الرهيب، ولا يبقى الا ذكره وأثره.. وذلك حيث يقول:[٢]

---

(١) ديوان أبي العتاهية ص ٣٤٦ ـ ٣٤٩.

(٢) ديوان أبي العتاهية ص ٢٠٦، ٢٠٧.

أخٌ طالما سرَّني ذكرهُ | فقد صرت أشجى لدى ذكره
وقد كنت أغدو إلى قصره | فقد صرت أغدو إلى قبره
أتته المنية مغتالةً | رويداً، تخلل من ستره
فلم تغن أجناده حوله | ولا المزمعون على نصره
وأصبح يعدو إلى منزلٍ | سحيقٍ تُوُنَ في حفره
تغلق بالترب أبوابه | إلى يوم يؤذن في حشره
ويدل بالبسط فرش الثرى | وريح ثرى الأرض من عطره
فلست أشيعه غازياً | أميراً يصير إلى ثغرهِ
ولا متلقٌ له قافلاً | بقتل عدو إلى أسرهِ
فلا يبعدن أخي هالكاً | فكل سيمضي على إثره

وقد أخذ كثير من الشعراء يعزف على أوتار أبي العتاهية في العصر العباسي ، والعصور التي تلته حتى العصر الحديث، فكان شوقي مع وفرة حظه في الحياة يردد هذه النغمة أيضا في معظم مراثيه ، فهو يبدؤها أو ينهيها بالتذكير بالموت، وأنه نهاية كل حي ، وأن نعوش العباد منصوبة لهم سواء كانوا ملوكا أو ورعية ، وأغنياء أم فقراء، كبارا أم صغارا وأن الحياة ليست سوى سراب يبلغه الظمآن فلا يجد الا الموت والحساب والعقاب . ومع أنه لم يكن من الزاهدين، ولا من دعاة الزهد في الحياة، كان يرى الموت طائرا يحوم على رؤوس كل الناس، ومن العبث اغفاله ونسيان هاتفه الذي يمر بالانسان في الصباح وفي المساء، وها هو ذا يوضح ذلك في احدى مراثيه يقول:(١)

كأسٌ من الدُّنيا تدار | من ذاقها خلع العذارْ
الليل قوام بها | فاذا ونى قام النهارْ
وحبابها الأعمار لم | تدم الطوال، ولا القصارْ
شرب الصبيُّ بها، ولم | يخل المعمر من خمارْ
وحسا الكرام سلافها | وتناول الهملُ العقارْ
وأصاب منها ذو الهوى | ما قد أصاب أخو الوقارْ
ولقد تميل على الجبا | د، وتصرع الفلك المدارْ

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٦٩.

كـأسٌ المـنـيـة في يـد عـــراء، مـا منـا فـرارْ
تجري اليمين، فمن تـولـ ـى يسـرة جـرت اليـسـارْ
اودى الجـريء إذا جـرى والمـسـتـمـيـتُ إذا أغـارْ
لـيـثُ المـعـامـع والـوقـا ئـع والمـواقـع والحـصـار

وللعقاد، وعبد الرحمن شكري نظرتان للموت والحياة تشبهان نظرة أبي العتاهية وشوقي، فهما وان كان لهما رأي في الشعر يخالف رأي شوقي واتجاهاته كما هو معروف عندهما في مدرسة الديوان المازني، والعقاد، وشكري يبنيان فكرتهما عن الموت والحياة على أسس لا تختلف عن فكرة شوقي ومن سبقه من شعراء العرب الأقدمين .

فهذا العقاد يقول تحت عنوان «كأس الموت»[1]

إذا شيعـوني يـوم تقضي منيتي وقـالوا: أراح الله ذاك المعـذبـا
فلا تحملوني صامتين الى الثرى فـإني أخـافُ اللحـد أن يتهيَّبـا
وغنـوا فإن المـوتَ كأسٌ شهيـةٌ ومـازال يحلو أن يُغنى ويشـربـا
وما النعش الا المهد مهدُ بني الرَّدى فـلا تحزنـوا فيه الـوليـد المغيبـا
ولا تـذكـروني بـالبكـاء وإنمـا أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا

وله أيضا ولزميله عبد الرحمن شكري حوار طريف دار بينهما شعرا وسماه العقاد في ديوانه ـ يقظة الصباح[2] ـ «احكام الموتى»، جاء فيه[3] أن العقاد أرسل هذه الأبيات الى الشاعر عبد الرحمن شكري:

ستغرب شمس هذا العمر يوماً ويغمض ناظري ليلُ الحمامِ
فهل يسري إلى قبري خيالٌ من الدُّنيا بـأبنـاء الأنـامِ

---

(١) ديوان العقاد ص ٥٩.

(٢) طبع العقاد ديوان «يقظة الصباح» سنة ١٩١٦ م.

(٣) ديوان العقاد ص ١٠١. هذا الديوان يضم أربعة أجزاء من شعر العقاد وهو مطبوع بأسوان ص ١٩٦٧ والأجزاء الاربعة هي: يقظة الصباح طبع سنة ١٩١٦، ووهج الظهيرة سنة ١٩١٧، وأشباح الأصيل سنة ١٩٢١م وأشجان الليل سنة ١٩٢٨ م.

فأجابه شكري :

وكان النصف أن نرضى بموت   فلا طيفٌ يساعِدُ باللمامِ
أليس الكون أكبر منك شأناً   وأولى بالمقادر والنظامِ

فرد عليه العقاد:

أبيت عليَّ أحلام الرجام   تنير حواشي الموت الزؤام
رضينا بالحمام أصمْ يحشو   منافذ حسه سافي الرَّغام
رضينا بالحمام كما رضينا   بعيشٍ نُورُهُ ظِلُّ الحمامِ
خلعت اسمي على الدنيا ورسمي   فما أبكي رحيلي أو مقامي
حياتي في حياة الكون طُرّاً   كقطر الغيث في اللجج الطوامي
وما شمس الحياة بمستحيلٍ   سناها إن قضيتُ إلى ظلامِ

وإذا كان العصر العباسي عرف أبا العتاهية وأضرابه، والعصر الحديث عرف شوقيا وأنداده، وأنساب الشعر من هؤلاء وأولئك ملؤوا بالعظة والعبرة عن الحياة والموت ، وأعطى الحكمة عنها لراغبيها ، وواسى المحزونين في الحياة ، وصد المتهافتين عليها ، وفلسف الموت حتى صار مقبولا . . لا تفزع النفس عند ذكره . . فقد ظهر في القرن الرابع الهجري شاعر نابغة هو المتنبي أضاف إلى أوتار الشعراء وترا جديدا ذا أنغام مختلفة. . عمادها الحكمة والفلسفة، وصوتها الثورة على الزمن ورنينها التمرد على الدهر، . . لأنه لم يحقق له آماله في الملك والسيادة.

ومن المعروف أن المتنبي كان يرى أنه أعظم أهل زمانه ، وأنه جدير بأن يكون ملكا بل زعيما تنحني له جباه الملوك والعظماء. وأنه حاول أن يحقق هذا الحلم بكل الوسائل فلم يفلح ، ولذلك حنق على الأيام ، وأخذ يهجوها في شعره ، واتجه الى قراءة الفلسفة وعشق ما جاء فيها من حكم تتصل بالدهر، وما يرمى به الانسان من سهام الزمن . وكان لذلك تأثير كبير على شعره . فمعظمه يجري على ضرب من الفلسفة والحكمة، ومطعم بالعبارات المنقولة عنها. وتلون رثاؤه خاصة بألوان لم تكن معهودة عند من سبقه من شعراء العرب .

ومن أمثلة ذلك قوله[١]:

وإذا الشيخ قال أف فما مَلَّ ... حياةً وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحةٌ وشبابٌ ... فإذا وليا عن المرء ولى
أبدا تسترد ما تهب الدنيا ... فياليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحةٍ تورث الغـ ... ـم وخل يغادر الوجد خِلا
وهي معشوقة على الغدر ولا تحـ ... ـفظ عهدا ولا تُتَمِّم وصلا

ومن أهم مراثيه التي تصور لنا أنغامه الجديدة، وتأثره بالفلسفة والحكمة مرثيته التي عزى بها عضد الدولة بن بويه عندما ماتت عمته ، ففيها يقول:[٢]

نحن بنو الموت فما بالنا ... نعاف ما لا بُدَّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمانٍ من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس في شرقه ... فشكَّتِ الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ... موتة جالينوس في طبهِ
وربما زاد على عمره ... وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه ... كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالبٌ ... فؤادُهُ يخفِقُ مِنْ رعبِهِ

فهذه الأبيات ـ مع أنها في العزاء ـ تحس من خلالها أنك تغوص في معان فلسفية تتصل بالحياة وبالموت، وبمقادير الناس فيهما، وأن كل شيء سوف يرد الى أصله، والانسان أصله التراب، ومع أنه لم يلمس جوانب البكاء والندب على السيدة الراحلة ـ كما كان يفعل غيره من الشعراء ـ نراه قد عزى أعظم العزاء بفلسفة الموت والحياة .

ويقول شراح ديوانه ان البيت الثاني فيما أوردناه منقول من قول بعض

(١) ديوان المتنبي جـ ٢ ص ٤٣٠ مع شرح للشيخ ناصيف البازجي .
(٢) ديوان المتنبي جـ ٢ ص ٦٠٨ ـ ٦١١

الحكماء «اذا كان نشوء الأرواح من كرور الأيام، فما لنا نعاف رجوعها الى أماكنها؟».

والبيت الثالث مأخوذ أيضا من قول أحد الحكماء «اللطائف سماوية، والكثائف أرضية، وكل عنصر عائد الى عنصره».

ويرون أن البيت الرابع مشتق من قول بعض الحكماء «النظر في عواقب الأشياء يزيد في حقائقها، والعشق يعمي الحس عن درك رؤية الشوق».

وفي البيت الخامس نراه يعطي تصوره وهو تصور فلسفي عن الأشياء، فليس هناك شيء له بدء الا وله نهاية، ومن ير الشمس طالعة يعرف أنها لا بد غاربة. والانسان يولد ليموت.

وفي البيت السادس تكتمل الحقيقة في نظره فالموت ساحة يردها كل انسان غنيا أو فقيرا، وضيعا أو شريفا، عالما أو جاهلا، بل ربما ـ كما جاء في البيت السابع ـ يعيش الفقير والوضيع والجاهل أكثر من الغني والشريف والعالم، فالموت لا يعرف الفوارق بين الطبقات، كما أنه لا يهاب أحدا، ولا يضع حدودا بين الناس، وأشار الى «جالينوس» الطبيب والفيلسوف اليوناني المعروف، وقال ان راعي الغنم يموت مثله تماما، وربما كان عمره أطول، وحياته أكثر أمنا من جالينوس على نفسه وولده مع جهله وفقره، ومن يرد أن يغوص في مثل هذه المعاني مع المتنبي فليقف وقفة تأمل مع ديوانه فيجد فيه الكثير، ولا غرابة في ذلك فهو نديم سيف الدولة، وجليس «الفارابي» الفيلسوف العربي الكبير، والقارىء النهم لكتب فلاسفة اليونان، وفلاسفة عصره، والساخر من الدهر الذي لم يعطه حظه، والمؤمن بأن الموت غاية كل حي، وأن الدنيا ليست الا طريقا اليه وأن كل انسان بل كل ما في الكون الى فساد، وأن عنصر الموت مولود مع الانسان، وليس له منه مهرب ولا مفر.

وفي القرن الخامس الهجري عرف الشعر العربي شاعرا فذا، اجتمعت فيه عوامل النبوغ وجوانب العبقرية هو أبو العلاء المعري ذلك الرجل الذي أحاط شاعريته بأحاسيس الحزن المر على عاهته وفقد بصره، وبالآراء والأفكار التي

عشقها وأدمن على قراءتها في كتب الفلاسفة خاصة التي يتصل منها بالتشاؤم والزهد في الدنيا ، وكذلك ما قرأه عند المتنبي من سخط على الحياة، وغضب منها ، وذم لها ، وجاءت تلك الاحاطة بقصائد مفردة في معانيها وأنغامها وسبكها، وعظم تأثيرها لم يألفها العرب من قبل، ولم يرتق فوق معناها أحد بعد، وكان من أبرزها وأصدقها دلالة عليه قصائده في الرثاء والعزاء وذم الدنيا وليس هناك من قارىء متذوق للشعر العربي لم يقرأ قصيدته التي رثى فيها أبا حمزة الفقيه الحنفي الذي كانت تربطه به صداقة وطيدة، وحتى عصرنا هذا ما تزال هذه القصيدة مثالا نادرا للاعتبار بالموت والحياة، وفيها يقول:(١)

غير مجد في ملّتي واعتقادي … نوح باكٍ ولا ترنم شادي
وشبيه صوت النعي إذا قيس … بصوت البشير في كل نادي
أبكت تلكم الحمامة أم غنت … على فرع غصنها المياد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب … فأين القبور من عهد عادِ
خفف الوطء ما أظن أديم الـ … أرض الا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد … هوان الآباء والأجداد
سر إن اسطعت في الهواء رويداً … لا اختيالاً على رفات العباد
رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً … ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفينٍ … في طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن أحسا … من قبيل، وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار … وأنارا لمدلج في سواد
إن حزنا في ساعة الموت أضعا … ف سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت … امةٌ يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما … لٍ إلى دار شقوةٍ أو رشادِ
ضجعةُ الموت رقدة يستريح الـ … جسم فيها والعيش مثل السهاد

ولسنا في حاجة الى تحليل هذه الأبيات وشرحها لأن معانيها بارزة تدل

---

(١) سقط الزند لأبي العلاء المعري ص ٧ـ ١٢ طبع دار صادر ، ودار بيروت سنة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.

على نفسها من أول نظرة اليها، كما أن الشراح قد أشبعوها بحثا وتحليلا. ولكن ما أريد التركيز عليه هنا هو ايضاح نظرة الشاعر للحياة والموت ومعانيهما ، فهو يرى أن نوح الباكي الحزين، وغناء الشادي الطرب كلاهما لا يفيد الانسان ولا يجديه نفعا في هذه الحياة المظلمة القاسية، وأن صوت الناعي كصوت البشير فهما يتشابهان في كل شيء وان كان الشعراء يقولون: ان الحمام ينوح، فان أبا العلاء لا يراه كذلك وهو لا يدري أينوح أم يغني؟ لأن الغناء والنواح يتشابهان عليه كما تتشابه الدنيا في مسراتها وأحزانها في نظره، وما هذه الحياة الدنيا الا جنازة قائمة، ومقبرة كبيرة تمتد من أقدم العصور أي منذ الغابرين في عهد عاد الى عهده، وأن تراب الأرض الذي نسير عليه من أجساد الناس، ونحن نطؤه في غفلة من ذلك، وما أحرانا أن نسير عليه في رفق لأننا نسير على أديم مؤلف من أجسادنا الأباء والأجداد، وأولى بنا أن نكرمه وألا نهينه حفظا لحقوق الأسلاف، وأن تدرك أن هذا المصير حتما مصيرنا ، وأن ذرات التراب أبقى وأثبت في الحياة من أعمارنا، وسوف تمر علينا الأجيال يوما، فأولى بنا أن نكون لهم المثل والقدوة .

ويأتي تصوره عن القبور منذ القدم تصورا غاية في الدقة والروعة ، فهي وعاء فيه متسع لكل الأشكال والألوان يضم بين جوانبه الصالح والطالح والجاهل والعالم والغني والفقير، حتى ان اللحد نفسه ليضحك عجبا من اجتماع الأخيار والاشرار فيه .

وتظهر ملامح التشاؤم واضحة عند أبي العلاء فهو يشك في الخير والشر ويزدري الدنيا وكل ما فيها ، ويعجب من تكالب الناس عليها وتهافتهم على فضلاتها مع كل ما فيها من أذى، ورغبتهم الملحة في طول البقاء فيها مع ما تحمله من آلام وتعاسة ، ويخلص من ذلك الى الموازنة بين السرور عند الميلاد، وبين الحزن عند الموت فيرى أن الثاني يزيد عن الأول أضعافا مضاعفة، وتبرز عقيدة الايمان فيه ، فيتحدث عن بقاء الانسان بعد الموت ويقرر خلوده، وأن هناك بعثا وحسابا ونعيما وجنة ونارا، وأن البشر خلقوا للأبد وللبقاء دون فناء، وما الموت الا انتقال من دار الى دار، هي دار الخلود التي فيها يعذب الجاني الشقي، وينعم الراشد السعيد، وما الموت الا كنوم

النائم ، والحياة كاليقظة التي تتبعه ، فالموت اذن أفضل من الحياة لأن في النوم راحة البدن من التعب والعناء، والموت كذلك راحة من كل آلام الحياة وهمومها ومتاعبها. وحين انتقل الى الحديث عن الفقيه الميت ألم بهذه الصور كلها وجعله مثالا لها ونادرة من نوادرها فقال :

قصد الدهر من أبي حمزة الأوّ ... اب، مولى حجىً ، وخدن اقتصاد
وفقيهاً أفكاره شدن، للنعمان ... ما لم يشده شعر زياد
أنفق العمر ناكساً، يطلب العلـ ... ـم بكشف عن أصله، وانتقاد

ثم يختم قصيدته بقوله :

كل بيت للهدم ما تبتني الور ... قاء، والسيد الرفيع العماد
والفتى ظاعن ويكفيه ظل السـ ... ـدر ضربُ الأطناب والأوتاد
بأن أمر الإله، واختلف النا ... س، فداع إلى ضلالٍ وهادي
والذي حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد
واللبيب اللبيب من ليس يغـ ... ـتر بكون، مصيره للفساد

وهو في هذه الأبيات الأخيرة يلتقي مع المتنبي في كثير من المعاني التي أوردتها في النص السابق ، فالموت عنده كما كان عند سلفه غاية كل حي ، والدنيا ليست الا طريقا إليه، وكل انسان بل كل ما في الكون ينتهي الى فساد، يستوي في ذلك أصحاب القصور الشامخة، وأصحاب الكهوف المترية، والعلماء والجهلاء والسادة والعبيد ، ونلمح فيه اكثر روح المتنبي وفكره وأسلوبه في مرثيته الرائعة لأبي جعفر بن علي بن الهدب حيث انتهت من البكاء والأنين عليه الى ذم الدهر والغضب من أفعاله. . حيث قال:(١)

يا دهر يا منجز ابعاده ... ومخلف المأمول من وعده
أيُّ جديد لك لم تبله ؟ ... وأي أقرانك لم تردِه؟
تستأسر العقبان في جوها ... وتنزل الأعصم من فنده
أرى ذوي الفضل وأضدادهم ... يجمعهم سيلك في مده
تجربة الدنيا وأفعالها ... حثت أخا الزهد على زهده

---

(١) سقط الزند ص ٢٤ ـ ٢٨.

والقلب من أهـوائه عـابـدٌ   مـا يعبـد الكـافر من بـنده
إن رمـاني بـرزايـاهُ لي   صـيـرني أمـرح في قـيدِهِ
كـأننا في كفـه.. مـا لـه   ينفـق مـا يختـار من نقـدِهِ
لـو عـرف الإنسـان مقدارهُ   لم يفخـر المولى عـلى عبـدِهِ
أمس الـذي مرَّ عـلى قبـره   يعجـز أهـل الأرض عن رده
أضحى الـذي أجـل في سنـه   مثـل الذي عـوجل في مهـده
ولا يبـالي الميـت في قـبـره   بـذمـه، شـيـع أم حمـدِهِ
والـواحـدُ المفـرد في حتفـه   كـالحاشـد المكثر من حشـدهِ

ثم يقول:

مـا رغبـة الحي بـأبنـائـه   عـما جنى المـوت عـلى جده
ومجــده أفعـالـه، لا الـذي   مـن قبـله كـان، ولا بعـده
لـولا سـجـايـاه وأخـلاقـه   لكـان كـالمعـدوم في وجـدهِ

وهكذا رحلنا عبر العصور وأتينا بأمثلة نادرة عن الرثاء والعزاء والتأبين، ووقفنا عند ثلاثة من أعظم شعراء العربية في مختلف الأزمنة لنرى رأيهم في الموت والحياة، وسقنا أمثلة لكل منهم، ـ وهم: أبو العتاهية والمتنبي، وأبو العلاء ـ وبينا أن شعراء العربية بعدهم حتى العصر الحديث تأثروا بهم أعظم التأثر وراحوا يتشبثون بأقوالهم، ويقتبسون منها في أشعارهم، وعنت لهم وجوه الشعراء على مر العصور، فهم المورد الذي لا ينفد، والكنز الذي لا يفنى، والثروة التي تغني العقل والفكر وتملأ النفس بالاحساس والشاعرية، وتستدر العيون كما تذكي النفوس والأرواح، ولا شك أن شوقيا كان قبسا منهم، ولمحة من ملامحهم، وازداد تأثره بالمتنبي وأبي العلاء وان لم يكن له تشاؤم الأخير وبؤسه، وقد أوردنا له الكثير مما يدل على ذلك دلالة واضحة، ففي مطلع رثاء جدته لقاء واضح مع أبي العلاء حيث يقول:(١)

خلقنـا للحيـاة وللممـات   ومن هـذين كـلُّ الحـادثـات
ومن يولد يعش ويمت كأن لم   يمـر خيـالـه بـالكـائنـات

(١) الشوقيات ج ٣ ص ٣٨.

ومهد المرء في أيدي الرواقي كنفس المرء بين النائحات

وكذلك قوله في مرثيته لمحمد فريد:[1]

كل حيٍّ على المنية غادي تتوالى الرُّكاب والموت حادي
ذهب الأولون قرنا فقرنا لم يدم حاضر، ولم يبق بادي
كرة الأرض كم رمت صولجاناً وطوت من مُلاعب وجياد
والغبار الذي على صفحتيها دوران الرَّحى على الأجسادِ

ومن قوله في رثاء مصطفى كامل[2]

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائقٌ وثواني
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمرٌ ثاني
للمرء في الدُّنيا وجم شؤونها ما شاء من ربحٍ ومن خسران

وكثيرة هي الأبيات المتناثرة بين ثنايا قصائد شوقي في الرثاء التي تدل على تأثره بالشعراء الثلاثة، وان كان مختلفا عنهم في حياته وفكره وتصوره، ولكنه شاعر مبدع مثلهم، وأنغامه وحلاوة جرسه تؤثر في النفوس مثل تأثيرهم.

وقبل أن نطوي هذه الصفحات أحب أن نقف عند نظرة أخرى للموت والحياة عند بعض شعراء العربية كالشريف الرضي، والحلاج، وابن الفارض، وهم من شعراء الزهد، والنظرة المتأملة في الكون والحياة، ولكنهم يختلفون في التفكير والمنهج والأسلوب عن أبي العتاهية والمتنبي، وأبي العلاء، لأنهم يرون الحياة على جمالها وروعتها وجلالها، ومع ذلك يطالبون المرء أن يجعلها مسلكا للآخرة، وميدانا للعبادة والتزين والتجمل للقاء الله بالطاعات والأعمال الصالحة، ومع أن الموت في نظرهم كما هو عند غيرهم رحلة النهاية، يرونها رحلة ممتعة رائعة الجمال والفتنة عند من استعد لها، وخير مثال أسوقه لذلك قول «الحلاج» وهو أبو المغيث الحسين بن منصور بن محمي

---

(١) الشوقيات جـ٣ ص ٥٥.

(٢) الشوقيات جـ٣ ص ١٥٨.

البيضاوي المتوفي سنة ٢٤٤ ـ ٣٠٩ هـ، ٨٥٨ ـ ٩٢٢ م في موعظة له عن الحياة والموت:[١]

فيا من بات يخلو بالمعاصي وعين الله شاهدة تراه
أما تخشى من الديَّان طرداً وتحرم دائماً أبداً تراه
تبارز بالمعاصي منك مولى على جهل: يراك ولا تراه
اتعصي الله وهو يراك جهراً وتنسى في غدٍ حقاً لقاه

وتخلو بالمعاصي وهو دانٍ إليك ولست تخشى من شطاهُ
وتنكر فعلها ولها شهودٌ على الإنسان تكتب ما حواهُ
فويلٌ العبد من صحفٍ وفيها مساويد إذا وافى مساهُ
ويا حزن المسيء لشؤوم ذنب وبعد الحزن يكفيه جواهُ
ويندم حسرة من بعد فوتٍ ويبكي حيث لا يجزي بُكاهُ
يعض يديه من ندمٍ وحزنٍ ويندب حسرةً ما قد عراهُ
فكن بالله ذا ثقة وحاذر هجوم الموت من قبل أن تراهُ
وبادر بالمتاب وأنت حيٌّ لعلَّك أن تنال به رضاهُ

وقد أوردنا بعضا من أقوال الشريف الرضي في الرثاء، وتعرفنا من خلالها على منهجه وفكره وأسلوبه في الحديث عن الموت والحياة، وطريقته في رثاء أهله وأحبابه وأصدقائه.

وأما ابن الفارض فقد كان صوفيا زاهداً في الحياة .. زهدا جعله موضع اجلال واكبار من أهل عصره، وكان الحكام والعظماء والكبراء يحاولون التقرب اليه، والدنو منه فيرفض ذلك، ويعيش لخطراته الروحية التي تجعله في حالة من الهيمان بالعشق الالهي، وقد حاول السلطان الكامل الحاكم الأيوبي لمصر

---

(١) شرح ديوان الحلاج للدكتور كمال مصطفى الشيبي ص ١٣٩ طبع مكتبة النهضة بيروت ـ بغداد طبعة أولى سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ وقد جمع ماسينيون المستشرق المعروف ديوان الحلاج بعد أن كان مفرقا في مئات المراجع.

أن يتقرب اليه ، ويتبرك به ، فأرسل اليه مع تلميذ له ألف دينار ذهبا يطلب منه أن يوزعها على مريديه من الفقراء فردها وعنف تلميذه، وقال له لا حاجة لي بمال السلطان ولا غيره ، ولما علم الكامل بذلك خرج بنفسه لزيارته في معتكفة بالأزهر فخرج ابن الفارض من باب آخر حتى لا يقابل السلطان، ولم يمض وقت طويل حتى ألح عليه المرض، وأذنت شمسه بالأفول ، فأرسل اليه الكامل يستأذنه في أن يبني له قبرا ومزارا فرفض ذلك رفضا قاطعا ، مما يدل على قوة ايمانه ، وزهده في متاع الدنيا الفاني .

ولم تعرف العربية صوفيا زاهدا كابن الفارض الذي فتح الله عليه من أبواب الشعر في مجاهداته الروحية، ومحبته لربه ما لم يفتحه على سواه .. حتى سمي بحق سلطان العاشقين للذات العلية[1].

ولقد كان يتلقى هذا الفيض غالبا حين ينقطع عنه فيض الشهود للحضرة الالهية فيتغنى بحبه مصورا وجده بربه وهيامه بجماله الذي يفيضه على الكون من حوله وحين تقرأ له تشعر أن نفسه الشعري متصل لا يكاد يتوقف ازاء ما يصف من نشوته بغرامه وعشقه وأمله في شهود ربه .

ولعل أطول قصائده تائيته التي وصف فيها معراجه القدسي وصفا مفصلا دقيقا وهي في نحو سبعمائة وستين بيتا تصور أروع معاني العشق الالهي ، وأعلا مراتب الزهد في الدنيا ، وله قصائد كثيرة زادت أبياتها عن خمسين ومائة بيت ، وديوانه كبير عني به الشراح والحفاظ منذ عصره حتى اليوم[2] ولا يهمنا هنا اختلاف الشراح واتجاه بعضهم الى اللفظ ، وبعضهم الى المعنى ، وبعضهم اليهما معا وتحميل الكلمات والمعاني فوق ما تطيق وما ينبغي . ولكن الذي يهمنا أنه كان شاعر الحب الالهي بلا منازع ، وأنه كان في شعره

---

(١) انظر ابن الفارض سلطان العاشقين للدكتور محمد مصطفى حلمي ص ٢٣٧ ـ ٢٤٩ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٨٢ ـ ١٩٦٣ م سلسلة من أعلام العرب (رقم ١٥)

(٢) انظر الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية للدكتور عبد اللطيف حمزة جـ١ ص ٢٩٩ ـ ٣١٣ وما بعدها ـ (الألف كتاب جزءان رقم ٢٤١، ٢٤٢) مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ.

يصور وجده بربه وعشقه لحبه وأحواله في هذا العشق ، ومقاماته وما ابتغاه من السمو بروحه الى الاتصال بالكائن الأعلى ، وأنه جعل وسيلته الى هذا التصوير . . . الغزل بالذات الالهية غزلا ظامئا لا يروي صاحبه أبدا ، وهي وسيلة قديمة طالما استخدمها المتصوفة من قبله ، غير أن أحدا لم يبلغ مبلغه في استخدامها ، وهو استخدام يداخله الرمز ، ولكن هذا الرمز لم يكن في الكلمات ، ولكن في الموضوع العام وأدائه ، وهو موضوع الحب الالهي الذي أراد ابن الفارض أن يصور فيه نسكه وسعادته بذكر الله وتسبيحه واحتماله لآلام الزهد والتقشف ، محاولا بكل ما استطاع أن يتجرد من كل مشاعره وأحاسيسه ، وأن يخلو من كل وجود ومن كل شعور ، ومن كل صفة انسانية فيه ، حتى يصل الى شهود محبوبه وهو في سبيل ذلك يريد أن يمحو المكان والزمان ، فلا مكان ولا زمان ولا جثمان ، بل غيبة عن كل وجود، حتى يمكنه أن يصبح في عالم الشهود[1].

وتلك نظرة للدنيا تختلف اختلافا كليا عما عرفنا عند أبي العتاهية والمتنبي وأبي العلاء، بل وعند من تأثروا بهم من شعراء العربية في مختلف العصور حتى شوقي زعيم شعراء العصر الحديث ، فهو ليس ساخطا على الحياة ، ولا متبرما بها ، ولا طمع له فيها ولا عذاب يأتيه من أفعالها ومواقفها ، وانما هي وسيلة يستغلها لإذابة ماديته وتحويلها الى نورانية شفافة ممتلئة بأشعة الضوء الالهي الذي يفيض عليه فيجعله هائما في أبعاد لا حدود لها ولا زمان ولا مكان .

يقول مصورا امحاءه في الذات الالهية وغيبته في عشقها عن حياته[2]

ودعت قبل الهوى روحي لما نظرت ... عيناي من حسن ذاك المنظر البهج
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد ... أوفى مُحبٍّ بما يرضيك مبتهج

---

(1) انظر «فصول في الشعر ونقده» للدكتور شوقي ضيف ص ١٩٧ - ٢٢٨ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١.

(2) ديوان ابن الفارض ص ١٤٤ - ١٤٧ - طبع دار صادر وبيروت سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٧٥ م.

وخــذ بقيــة مــا أبقيت من رمقٍ لا خير في الحب إن أبقى على المهج

فهــو قتيل الحب ، وروحه منصهرة تسري الى حبيبه ، لا يحجبها الجسد ولا يمنعها عن السعي اليه ، مشاهدته الألم ، لأنه يتقبل كل عذاب في سبيله راضيا مبتهجا ، ويتوسل الى ربه ضارعا أن يخلصه من رمقه الأخير ، حتى لا يكون فيه إحساس بوجود ما سوى وجود ربه ، وحتى يخلص من كيانه المادي، ولا يكون هناك سوى الكائن الأعلى وحقيقته الالهية الأزلية ، انه محبوبه وليس هناك سواه في كل شأن من شؤون الوجود، وكل مشهد من مشاهده .

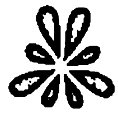
تَـراهُ إن غاب عني كـل جارحـةٍ في كــل معنى لـطيف رائق بهـج
في نغمة العود والنـاي الرخيم إذا تــألفــا بـين ألحـانٍ من الهــزج
وفي مسـارح غـزلان الخمـائـل في بـرد الأصائـل والاصباح في البلج
وفي مســاقط أنـداء الغمـام عـلى بســاط نـورٍ من الأزهــار منتسـج
وفي مســاحب أذيــال النـسيم إذا أهـدى إليَّ سُحَيـراً، أطيب الأرج

فعشقه لله ملك عليه كل مظـاهر الكون ومشاهده وجماله يسليـه عن وجوده وكيانه ، فيجعل الدنيا غير موجودة وغير محسة ، لأنها لمع من شعاعه ، وقبس من نوره ، وابن الفارض يهيم به وبجلاله، فالدنيا اذن غير موجودة في عالمه .

ولا أتصور أنني بعدت بهذه اللمحة عن موضوع الرثاء والعزاء والتأبين ، والنظر الى الحياة والموت من زوايا الشعراء في مختلف العصور العربية ، لأن قصدي من خوض هذه الميادين الشاسعة أن أضع صورة حية لمفهوم الرثاء عند العرب في مختلف عصورهم ، وأن أضع نظرة كبار شعرائنا للحياة والموت سواء كانوا من الشعراء الزهاد أو المتشائمين أو من غير هؤلاء وأولئك، وأن أبين أن مراثي شعرائنا في العصر الحديث ـ وأن كان باديا فيها التأثر بأسلافهم ـ حوت من النزعات السياسية والوطنية ما أشعله الاستعمار في نفوس الشعراء باحتلاله لديارهم ، وتشريده لزعمائهم ، ولرجال الوطنية والكفاح فهيم مما جعلهم يكثرون من الندب والبكاء على الرجال أكثر من تناولهم

للموت والحياة ومعناهما كما كان يفعل الشعراء السابقون. وكان ذلك أثرا طبعيا لظهور المجاهدين والمكافحين للاستعمار في كل وطن من الأوطان العربية.. ثم تهجوم الموت عليهم كغيرهم من أبناء البشرية ولكنهم بالنسبة لأممهم وشعرائها كانوا نورا يطفأ وقبسا يختفي وهداية تضيع فبكاء الشعراء عليهم عمل سياسي ووطني قبل أن يكون عملا فنيا شعريا ولا ينتقص هذا شيئا من شعر شعراء عصرنا، بل ربما يكون شهادة لهم لا عليهم.

* * *



أهم المراجع

الأمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. ذخائر العرب ٢٥ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م.

ابن حميدس (عبد الجبار بن حميدس) ديوان . دار صادر بيروت، سنة ١٩٦٠.

إبن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (جزءان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل بيروت ١٩٧٢ ط رابعة.

ابن زيدون (أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون) ديوان ابن زيدون مع دراسة عن الشاعر بقلم نديم مرعشلي الشركة اللبنانية للكتاب ١٩٦٨ م

ابن عبدون (محمد بن أحمد بن عبدون) ديوان ابن عبدون دار العودة بيروت ١٩٦٦ م

ابن الفارض) (عمر بن علي بن المرشد ابن الفارض) ديوان دار صادر - بيروت ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م.

ابن نباته (جمال الدين بن نباته) ديوان ابن نباته. دار إحياء الترثا العربي - بيروت ١٩٧٠ م

ابن النبيه المصري (كمال الدين أبي الحسن علي بن محمد) : ديوان تحقيق عمر محمد الأسعد - دار الفكر - بيروت ١٩٦٩ م

أبو تمام : (حبيب بن أوس بن الحارث أبي تمام الطائي) ديوان ٤ أجزاء - شرح الخطيب التبريزي . تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف بمصر - ١٩٧٠

أبو العتاهية (إسماعيل) ديوان. دار بيروت للطباعة والنشر ط أولى ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م

أبو العلاء المعري : رسائل أبي العلاء . بيروت ١٨٩٤ م

أبو العلاء المعري : سقط الزند (٤ أجزاء) الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ م وأيضاً ط دار صادر - بيروت ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م

أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) الأغاني (١٦ جزءا) مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٣ هـ ١٩٦٣ م

أبو القاسم الشابي : ديوان ط أولى دار العودة - بيروت سنة ١٩٧٢ م

أبو نواس (الحسن بن هانىء): ديوان دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م

أحمد شوقي (أمير الشعراء): الشوقيات (٤ أجزاء) المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٧٠ م

أحمد نسيم : ديوان أحمد نسيم ط سنة ١٩٠٨، ط ٢ مطبعة الهلال سنة ١٩١٠ م

إسماعيل صبري : ديوان إسماعيل صبري باشا: لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م

أوس بن حجر : ديوان أوس بن حجر . دار صادر - بيروت سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م

البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبد الله بن يحيى) ديوان البحتري. دار القاموس الحديث - بيروت . بدون تاريخ.

توفيق زياد : ديوان توفيق زياد. . دار العودة - بيروت بدون تاريخ

الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (٤ أجزاء) تحقيق محمد محي الدين عبدا لحميد ط أول مطبعة حجازي - القاهرة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م

الجرجاني (علي بن عبد العزيز) الوساطة بين المتنبي وخصومه ط رابعة . مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م

جرير (محمد بن حبيب) ديوان جرير . صادر بيروت ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م

جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ط أولى دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ م

حسان بن ثابت: ديوانه . دار صادر بيروت سنة ١٩٧١ م

حافظ إبراهيم : ديوان (جزءان) الناشر محمد أمين دمج ـ بيروت ١٩٦٩م

الحلاج (أبو المغيث الحسين بن منصور بن محي البيضاوي) شرح ديوان الحلاج للدكتور مصطفى الشيبي ط أولى (جمع ماسنيون المستشرق المعروف) مكتبة النهضة ـ بيروت وبغداد سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

حنا فاخوري : تاريخ الأدب العربي (جزءان) دار صادر بيروت ١٩٥١ م

الخنساء: ديوان الخنساء. دار صادر بيروت ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م

خير الدين الزركلي : الأعلام جـ٦، ٧، ٨، ط ثانية مطبعة كوستاتومس ـ بيروت ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م

سميح القاسم: ديوان سميح القاسم ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٧٠ م

السيد تقي الدين السيد: علي محمود طه حياته وشعره دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٧٠ م

الشريف الرضي (أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين) ديوان (جزءان) دار صادر وبيرت سنة ١٣٨٠ م ١٩٦١ م

شوقي ضيف (الدكتور) فصول في الشعر ونقده . دار المعارف بمصر ١٩٧١ م

شوقي ضيف (الدكتور) فنون الأدب العربي «الرثاء» ط ثانية : دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م

شوقي ضيف ابن زيدون (نوابع الفكر العربي رقم ٥) ط ثالثة دار المعارف بمصر ـ بدون

طه حسين: (الدكتور) تجديد ذكرى أبي العلاء. دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م

عبد اللطيف حمزة: الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية (جزءان) الألف كتاب رقم ٢٤١، ٢٤٢ النهضة المصرية. بدون.

عباس محمود العقاد: ديوان العقاد. مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج. أسوان ١٩٦٧ م

عدي بن زيد العبادي التميمي: ديوان عدي تحقيق محمد جبار المعيد. دار الجمهورية للنشر بغداد ١٩٦٥ م

العماد الأصفهاني: ديوان العماد الأصفهاني. دار صادر وبيروت ١٩٦٠ م

علي بن الجهم: ديوان علي بن الجهم. دار صادر وبيروت ١٩٦٦ م

علي الغاياتي: ديوان وطنين ط ثالثة منبر الشرق سنة ١٩٤٧

علي محمود طه: ديوان علي محمود طه. مع شرح وتعليق لسهيل أيوب دار اليقظة العربية دمشق ١٩٦٢ م

عمر أبو ريشة: ديوان عمر أبو ريشة. دار العودة بيروت ١٩٧١ م

الفرزدق (همام بن صعصعة) ديوان الفرزدق. دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م

محمد ابراهيم نصر: ابن سناء الملك حياته وشعره دار الكتاب العربي. القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م

محمد صبري (الدكتور) الشوقيات المجهولة (جزءان) الأول طبع مطبعة الأمة الدرب الأحمر ١٩١٠ والثاني مطبعة هندية بالموسكي ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م

محمد عبد المطلب: ديوان عبد المطلب ط أولى. مطبعة الاعتماد بمصر. بدون تاريخ

محمد علي الهاشمي : دراسة تحليلية لشخصية عدي بن زيد وبيئته المكتبة العربية ط أولى. حلب ١٩٦٧

محمد مصطفى حلمي (الدكتور) : ابن الفارض. سلطان العاشقين (أعلام العرب ١٥) المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ م

محمود درويش : ديوان محمود درويش . دار العودة بيروت ١٩٧١ م

محمود سامي البارودي : ديوان البارودي (٤ أجزاء) الأول والثاني طبع دار المعارف بمصر ١٩٧١ م والثالث والرابع من نفس الدار سنة ١٩٧٦ م

المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي) : ديوان المتنبي جزءان . شرح ناصيف اليازجي سنة ١٨٨٧ مطبعة مصر والجزء الثالث . طبع دار الكتاب العربي. بإشراف عبد الرحمن البرقوقي . بيروت ١٩٧٠

مصطفى السقا وآخرين: شروح سقط الزند (آثار أبي العلاء المعري ٤ أجزاء) بإشراف د/ طه حسين . الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٦م

مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب جـ٣ ط أولى المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥١ م

الدوريات

الأهرام : ١٧ فبراير سنة ١٩١٩
١٩ فبراير ١٩١٩
٢٠ فبراير إلى ٢٧ ١٩١٩

عكاظ: ٢٢/ ٢ / ١٩١٩

الكاتب : عدد ٥٢، ٦٠

محتويات الكتاب

الفصل الأول

رثاء الأهل والأوطان

الفصل الثاني

رثاء الزملاء والعلماء والأعيان

الفصل الثالث

رثاء الزعماء والقادة

الفصل الرابع

العزاء والمواساة